

صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ

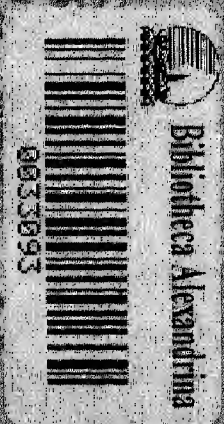
٤

أَمِينٌ دَوَّيْدَار

الفتح المجيد



دار المعارف



صَوْرَمَنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ
(٤)

الْفَتْحُ الْمُبِينُ

أَمِين دَوِيدَار



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذى أعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، والصلاة على خير مبعوث لخير أمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وبعد: فإن فتح مكة كان هو المشعل الأول الذى أضاء الأرض بما رحبت ونشر دعوة النور فى أرجاء المعمورة، وفى السنة الثامنة للهجرة وفى شهر رمضان بالذات، تم فتح مكة المكرمة، وعاد إليها أبناؤها المسلمون بعد فراق مؤلم وعادت لها بهذا الفتح الأنوار الإلهية، وبهذا الفتح فرح المسلمون بنصر الله، الذى ينصر من يشاء، وحقق الله تعالى لنبيه ﷺ الفتح الموعود إذ يقول فى محكم كتابه:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

وكان هذا العود الكريم إلى مكة الحبيبة إيذاناً بتاريخ إسلامي باهر، وتوطيداً لأركان الحق، واستئصالاً لشأفة الشرك، وانمحي كل ما يمت إلى الباطل بصلة، وطمست معالم الجاهلية، وحطمت الآلهة التي كانت تقدر من دون الله.

وهذا ما يحدثك عنه هذا الجزء الذي بين يديك، فهو يوضح لنا آثار الفتح، وما تبعه من أحداث جسام تكشف بوضوح سماحة الرسول ﷺ التي لا يحدها حد، ولا يصورها بيان في معاملة الذين آذوه وأخرجوه من وطنه الحبيب إلى نفسه، ولكن هيهات، لقد عاد مرفوع الهامة عزيز الجانب. وبهذا صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

[دار المعارف]

الفتح المبين

عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً
 لم يقف المسلمون من رسول الله ﷺ موقفاً قط كان أشبه
 بموقفهم منه في صلح الحديبية، ولم يعارضوا شيئاً من أعماله قط
 كما عارضوا ذلك الصلح، ولم يقف رسول الله ﷺ منهم موقفاً
 قط كان أغْيَظَ لهم وأشدَّ عليهم من ذلك الموقف؛ فقد أمضى
 الصلح على رغبتهم، وعدلَ عن مشاورتهم في ذلك الأمر
 الخطير، ولم يكن له في مثل ذلك سابقة، وقابل تشدد قريش
 وعنادها بمنتهى التساهل والملاينة، ورد أبا جندل إلى الفتنة
 والعذاب ولم يكن عهد الصلح قد كتب بعد. فشر المسلمون
 في ذلك اليوم بكل معاني الغبن والمهانة، وفارت نفوسهم بكل
 ما يحسونه من عزة الإيمان وقوة الاعتصام بالحق، حتى ذهب
 عمر بن الخطاب يجادل رسول الله ﷺ في ثورة بادية وغيظ
 مكظوم، ويسأل في دهشة عن السبب الذي دعا رسول الله،
 صلى الله عليه وسلم، إلى قبول هذه المهانة، فيجيبه رسول الله

في اطمئنان الواثق وثقة المطمئن : «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني».

وهنا محور الارتكاز في القضية كلها؛ فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بأن يفعل مايفعل، فلم يكن له أن يخالف أمر ربه وهو الذى أيدته بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، ولم يكن له أن يشاور أصحابه أو يستجيب لعواطفهم وقد صدر الأمر إليه من العلى الحكيم. ولقد أحسَّ صلى الله عليه وسلم ذلك، منذ ركت ناقته عند مهبط الحديبية وقال أصحابه : «خَلَّات»، فقال : «ما خَلَّات، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة»؛ ومنذ هذه اللحظة أعد نفسه لقبول كل خطة تدعو إلى السلم، وصلاح ذات البين، ما دام أساسها تعظيم حرمان الله تعالى، وأعلن هذه العاطفة الكريمة صريحة واضحة حين قال : «والذى نفسى بيده لا تدعون قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمان الله، وفيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها».

فلما بدا له من قريش رغبة في الصلح لم يتردد في قبولها، وجعل همه أن يصل إلى هذا الهدف وإن مشى له على الشوك. وكان الهدف في نظره أسمى من أن يهتم في سبيله بالصور والأشكال، وأعلى من أن يضيع بسبب كلمة نائية أو مظهر جاف؛ ومن أجل ذلك أعرض عن كثير من جهالات قريش،

وتسامح مع رسولهم غاية التسامح، وتقبل بصدر رحب كل ما بدا منه من صلابة وعناد، ولم يُلق بالاقط إلى ما كان من أصحابه من حمية وغضب، ومضى في القضية يعالجها بحكمته وسياسته، حتى انتهت إلى نهايتها التي يرجوها ويرجوها الخير للإسلام والمسلمين؛ وكأنما كان صلى الله عليه وسلم ينظر بعين الغيب إلى ما وراء هذا الصلح من خير كثير.

ولقد آتى هذا الصلح ثمراته بأسرع ما كان ينتظر المسلمون، وبأعجب مما كانوا يتصورون، وكانت ثمراته طيبة مباركة حتى سماه الله تبارك وتعالى ﴿فَتْحاً مُبِيناً﴾؛ وكأنما كان بسبب يقف وراءه الخير أو سداً يحبس خلفه الفيضان، فلما انفتح تدفق الخير تدفقاً وانساب انسياباً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ * لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَزِيزاً.... وَعَدُكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا، فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى شَيْءٍ قَدِيرًا^(١)

(١) سورة الفتح الآيات ١، ٣، ٢٠، ٢١.

وضعت الحرب أوزارها فانفسح الطريق أمام الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش، وكانت قريش هي العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره، وكانت عداوتها له أصل البلاء ومنبع الشر، وكان العرب واليهود يسرون على منهاجها في مناوأة الإسلام وعداوته؛ وكأنما كانت هي الجذوة التي تشعل النار في كل ما حولها، فلما تم الصلح بينها وبين المسلمين خمدت هذه الجذوة، فحمد كل ما حولها من الله، وانطفأ كل ما فوقها من الشرار.

لقد أخذت قريش منذ قام النبي، صلى الله عليه وسلم، بدعوته تناصبه العداوة وتقيم في طريقه العقبات، وتصفه بالسحر تارة، وبالكهانة تارة، وبالجنون تارة، وبالكذب تارة، وتحذر العرب في المواسم والأسواق من شره وسحره ليقاطعوه، وتحصره وآله في الشعب حتى كادوا يهلكون جوعاً، وتصب على أصحابه ألوان العذاب حتى تخرجهم من ديارهم وأموالهم، وتتآمر على قتله حتى يفر منها مهاجراً إلى المدينة، ثم تتعقبه هناك في مهاجره فتغزوه المرة بعد المرة، وتتآمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله، ويجمعون له الأحزاب ويؤلبون عليه القبائل.. وهكذا وهكذا

مما جعل حياته وحياة أصحابه جهاداً دائماً وكفاحاً مريراً..

ثم ها هي ذى قريش بعد كبرياتها وعنادها، وبعد جحودها العاقى وعدائها المر، ترغب الآن فى مهادنته وسلمه، وتعترف به بعد أن أنكرته، وتقفه منها موقف النظير من النظير، وترسل إليه رسوماً ليفاوضه فى أمر الصلح؛ فأى فرصة أحسن من هذه يمكن أن ينتهزها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام التى ظل حياته يجاهد فى سبيلها، والتى رصدت لها قريش كل مَرُصد ووقفت لها بكل سبيل؟ لقد كانت فرصة ينبغى ألا تضيع، وألا يحول دونها شىء من المظاهر التى لا قيمة لها ولا غناء فيها. ولقد انتهزها رسول الله ﷺ فأمضى الصلح بينه وبين قريش، ولم يعبأ بما هنالك من غضب الأصحاب وجهالة الأعداء؛ فضرب بذلك أروع الأمثال فى الحكمة والسياسة، وقوة البصر بالأمور ودقة النظر فى العواقب.

أصبح المسلمون قادرين على أن يتصلوا بالناس

فى ديارهم ليشرحوا لهم مبادئ الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل، ومُهدَّ للدعوة طريقها لكى تصل إلى القلوب؛ فبعد أن كان المسلمون محصورين فى

المدينة، منقطعين عن العرب في البادية والحاضرة، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل في منازلهم، وأن يختلطوا بالناس في ديارهم، فيشرحوا لهم مبادئ دينهم وحقيقة دعوتهم، ويطلعوهم على ما في هذه الدعوة من مبادئ سامية وأخلاق عالية، ومثل كريمة وأهداف عظيمة؛ فأخذ الناس - بما يرون من أعمال المسلمين وأحوالهم، وبما يسمعون ويشهدون من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بينهم، وعظيم أخلاقه فيهم - يُقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه؛ ففشا الإسلام في كثير من القبائل، وآمن به كثير من الناس، وأخذ يحيطه يتسع حتى شمل مكة نفسها، وجعل عدد المسلمين يزداد حتى صار أضعافاً مضاعفة؛ ولم يمض عامان بعد الحديبية حتى دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مكة في عشرة آلاف، وكان جيشه يوم الحديبية لا يزيد على ألف وستائة.

وكما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعمل على نشر الإسلام في بلاد العرب، أخذ يعمل على نشره في الممالك والأقطار التي تحيط بها؛ فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رجالاً يعرفهم بحسن الأداء وقوة البلاغ، فبعث بكل كتاب رجلاً إلى ملك من الملوك. ومع أن أكثر هؤلاء الملوك والأمراء لم يؤمنوا، ولم يحسن بعضهم تلقى

كتاب النبي ولم يكرم وفادة رسوله، فإن صوت الإسلام دوى في هذه الأقطار، وظل صدها يرن في أرجائها حتى فتحها الله على المسلمين، ودان أهلها بالإسلام بعد زمن قليل لا يزيد على ثلاثين عاماً.

انعزل اليهود بهذا الصلح عن العرب فوجه النبي إليهم كل قوته فقضى عليهم

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن ألقى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن كاهله عبء التفكير في قريش، وأخذ يوجه كل قوته إلى اليهود، وكانوا هم العدو الأكبر بعد قريش؛ وكانوا لا يزالون يحاولون بوسائلهم الماكرة، ويعملون بأساليبهم الخبيثة، ليزعزعا قوة الإسلام ويقوضوا أركانه، حتى لا تقوم له دولة، أو يكون لأهله صولة؛ وكان اعتمادهم فيما يريدون من ذلك على قريش أولاً، وعلى من حولهم من قبائل العرب ثانياً. فلما وقع الصلح بين المسلمين وقريش، وكان من نتائجه ما كان من هذه الهدنة، ومن جنوح القبائل بعدها إلى السلم، صار اليهود في شبه عزلة عن العرب، وضائق عليهم الدائرة فانحصروا في محيط ضيق، وتهيأت بذلك الفرصة للمسلمين للقضاء على هذا العدو الغادر، الذي

لا يؤمن شره، ولا يُرتجى خيره، وكان ما كان بعد ذلك من وقائع خيبر وفدك وتيأء، مما أعز الله به الإسلام وأذل أعداءه.

اعترفت قريش بحق المؤمنين في زيارة البيت وأمن المستضعفون بمكة على أنفسهم

وكان من ثمرات هذا الصلح أن اعترفت قريش بحق المسلمين في زيارة البيت، وأن تم ذلك دون قتال، وكان ذلك فوزاً عظيماً للمسلمين في المدينة، وخيراً وبركة على المستضعفين في مكة؛ فقد كان في مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعرفهم رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وكانوا من المستضعفين الذين لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، ولا يجدون السبيل إلى الفرار بدينهم؛ فلو كان القتال نشب بين الفريقين لذهب ضحيته عدد من هؤلاء المستضعفين، ولقتل المؤمنون إخوتهم وهم لا يعلمون بأمرهم، فيكون في ذلك ما يكون من الخسارة عليهم، ومن المعرة لهم، ومن التحرج والندم على ما كان منهم. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى مُتَمَتِّاً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ

فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ يُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً* إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً* لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً*^(١)

قريش تستغيث برسول الله

وكان الشرط الذي تألم له المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك.. فرجاً ومخرجاً للمستضعفين، ونكداً وخسارة على المشركين، حتى صاروا هم الذين يسعون إلى إلغائه، ويعلنون نزولهم عنه ولم يكن قد مضى عليه عام بعد.. ذلك أن أبا بصير - عتبة بن أسيد الثقفي - فر إلى المدينة هارباً بدينه من قريش، فأرسلت قريش في أثره رجلين إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تطالبه برده إليها وفاءً بشرط الصلح بينها وبينه، فقال رسول الله، ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد

(١) سورة الفتح الآيات ٢٤-٢٧.

أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر؛ فانطلق إلى قومك». فقال أبو بصير: «يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟» قال: «انطلق، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». فانطلق أبو بصير مع الرسولين، حتى إذا كان ببعض الطريق احتال حتى أخذ من أحد الرجلين سيفه، ثم جعل يضربه به حتى قتله. فلما رأى صاحبه ذلك فر بنفسه هارباً، حتى دخل على رسول الله المسجد مرتاعاً يقول: «قتل صاحبكم صاحبي»!! وجاء أبو بصير في أثره، فسلم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «وَفَتْ ذِمَّتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ؛ أَسْلَمْتَنِي إِلَى الْقَوْمِ وَقَدْ امْتَنَعْتَ بدينِي أَنْ أَقْتَنَ فِيهِ». فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب حيث شئت». فلما ولى أبو بصير قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «وَيْلُ أُمَّه مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ»!

وانطلق أبو بصير حتى نزل مكاناً على ساحل البحر، بين العيص وذى المروة من أرض جُهَيْنَةَ، وهناك قعد بطريق قريش، كلما مرت به تجارة لها أغار عليها. وسمع بأمر أبي نصير ناس من المستضعفين بمكة، وبلغهم ما قاله رسول، صلى الله عليه وسلم، في أبي بصير، فجعلوا يتسللون إليه ويتجمعون حوله،

وانفلت إليهم أبو جندل بن سهيل في سبعين راكباً أسلموا،
وانضم إليهم ناس من بني غفار وأسلم وجهينة، وطوائف من
الناس ومن الأعراب، حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، فأقاموا هنالك
يقطعون الطريق على تجارة قريش، لا تمر بهم عير إلا أخذوها
وقتلوا أصحابها. وفي ذلك يقول أبو جندل:

أبلغ قريشا عن أبي جندل	أنا بذى المروة بالساحل
في معشر تخفق راياتهم	بالبض فيها والقنا الذبيل
يأبئون أن تبقى لهم رُفقة	من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجاً	والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه	أو يقتل المرء ولم يأتل

وضاقت قريش بهم ذرعاً، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ
تناشده بأرحامها إلا آواهم إليه، وقالوا: «لا حاجة لنا بهم،
ومن خرج منا إليك فأمسكه من غير حرج عليك». فكتب
صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى أبي بصير وأبي جندل، يأمرهما بأن
يقدما عليه، ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى
بلادهم وأهلهم، ولا يعترضوا لأحد من قريش.

(١) البض: السيوف، والقنا الذيل: الرماح المستونة المصقولة.

(٢) لم يأتل: لم يدخر وسعاً في الدفاع عن عقيدته.

حكمة الرسول وحسن نظره في الأمور

وهكذا جعلت الأيام كلما مرت، تبين بُعد نظر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحسن سياسته وصواب رأيه، وتقنع أصحابه بأنهم كانوا متعجلين حين كرهوا ذلك الصلح الذي كان يُمنأ وبركة على الإسلام والمسلمين، وتظهر للذين برّموا به واستقلوا شروطه «أن النبي كان أصح منهم رأياً وأبعد مدى، وأشد يقيناً بأن الله لن يضيعه ولن يخذله، وأن ما رآه هو الخير الكثير والفور العظيم»^(١).

«وكان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يقول: «ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.. لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند النحر، يقرب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بُذنه، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينحرفها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه؛ فأنظرُ إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه؛ وأذكر إبائه أن

(١) لواء الإسلام - للأستاذ الشيخ محمد البنا.

يُقرّ يوم الحديبية بأن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإبائه
أن يكتب أن «محمدًا رسول الله»؛ فحمدت الله الذي هداه
للإسلام.. فصلوات الله وسلامه على نبي الرحمة، الذي هدانا
به وأنقذنا به من الهلكة»^(١).

«وكذلك صدّقت الحادثات حكمة النبي وبعد نظره ودقة
سياسته، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجرًا
لا يُنقض في سياسة الإسلام وانتشاره، وهذا هو الفتح
المين»^(٢).

(١) إمتاع الأسماع.

(٢) حياة محمد.

غزوة خيبر

مذبحة بني قريظة وأثرها في نفوس اليهود

تركت مذبحة بني قريظة في نفوس اليهود أثراً بالغ العمق بعيد المدى، وشعوراً مضطرب الأحاسيس مختلف النزعات، فظلوا حيارى سادرين لا يدرون ماذا يفعلون.. نازاً مستعرة في صدورهم من الألم والغیظ، تغشّيا طبيعة متأصلة في نفوسهم من الجبن والخور؛ وعاطفة عنيفة من البغض والعداوة، يخالطها إحساس عميق من الخوف والرغبة؛ ورغبة قوية في الانتقام والتشفى، يدافعها شعور قوى من الإحجام والتردد؛ ونزوع شديد إلى الحرب، يقابله حرص شديد على الحياة.. وكان لهم العذر في هذه الحيرة، فقد تلقوا من المسلمين ضربات شديدة الوقع كانت تنزل على رؤوسهم كالصواعق، وعلمتهم التجارب أن عدوهم هذا مرهوب قوى الشكيمة، وأنه فوق ذلك مؤيد بقوة الحق، فليس من اليسير أن يغلبه غالب، ولا أن تهزمه قوة في الأرض مهما عظمت. ولكنهم يريدون أن يطفئوا النيران المتأججة

في صدورهم، بالانتقام من هذا العدو الذي أذلهم وأرغهم،
وفجعهم في خيرة أبنائهم من الرجال والأبطال، ومن الزعماء
والسادة.

ومع أن اليهود كانوا هم البادين دائماً بالشر، وكانت الدائرة
في كل مرة تدور عليهم، فإنهم لم يرعوا ولم يزدجروا، ولم
يأخذوا من الماضي عبرة للحاضر، ولم يحاولوا قط أن يطمئنا من
شعور العداوة في نفوسهم للإسلام ورسوله، وأن يعيشوا مع
المسلمين في سلام ووثام، بل هي فكرة واحدة تملكتهم
وسيطرت على رؤوسهم، وتواصى بها زعماءهم وسادتهم، هي
القضاء على الإسلام وأهله؛ تارة يدفعهم إليها شعور الحسد
والغيرة، وتارة يدفعهم إليها شعور العداوة والبغضاء، وتارة
يدفعهم إليها حب الانتقام والأخذ بالثأر. وكلما رأوا رواق
الإسلام يمتد وقدمه ترسخ، زادت هذه الفكرة في نفوسهم
رسوخاً، فاندفعوا تحت تأثيرها يفكرون ويقدرّون، ويتخذون
لتنفيذها الوسائل، ويتلمسون الأسباب، ويتحينون الفرص.

عداوة قديمة متأصلة في النفوس

وكانت الكلمة التي قالها زعيمهم حى بن أخطب، منذ
رأى رسول الله ﷺ يقدّم المدينة، هي الدستور الذي أسسته

اليهود جميعاً: "عداوته - والله - ما بقيت".

كانت هذه الكلمة هي المبدأ الذي استمسك به اليهود منذ ذلك اليوم، والمنهج الذي سار عليه زعمائهم ودهماءهم، وظلت الحوادث والأيام تؤرّث نيران هذه العداوة، وتظهرها في كل مظهر يدل على كراهيتهم لما ينال المسلمين من خير.. ففند نصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر، أخذ اليهود يصرحون بما في نفوسهم من الألم لهذا النصر، وذهب شاعرهم كعب بن الأشرف يندب قتلى المشركين، ويحرض قريشاً على الانتقام والأخذ بالثأر، ويقع في أعراض المسلمات بما يقول فيهن من فاحش الشعر، ويؤذى النبي ويأتمر مع اليهود عليه.

فلما لقي مصرعه على أيدي رجال من المسلمين، قام يهود بنى قينقاع يتحدّون المسلمين ويعتدون على حرمتهم، ويستفزّونهم إلى الحرب بكل جارحة من القسول والعمل. فلما أجلاهم المسلمون عن المدينة، قام من بعدهم بنو النضير يحاولون اغتيال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أجلاهم عن المدينة ذهب زعيمهم حبي بن أخطب يحزّب الأحزاب على رسول الله وعلى المسلمين، ويحرض بنى قريظة على الغدر بهم في أخرج الأوقات وأسوأ الظروف.

فلما لقي جزاءه مع رجال بنى قريظة قام من بعده أبو رافع.

- سلام بن أبي الحَقِيق - يؤلب من جديد على رسول الله وصحبه، ويستخدم ماله ونفوذه في تجميع القبائل لحربهم. فلما لقي مصرعه قام من بعده أُسَير بن رِزَام، فجعل ينهج منهجه ويسير على خطاه، وأخذ يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات، ليكونوا مع اليهود عند دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين.

كان الرسول يحاول جهده أن يسالم اليهود فتغلبهم طبيعة الغدر فيهم

وهكذا كانت حياة اليهود مع المسلمين سلسلة من الضغائن والأحقاد لا تهدأ ولا تنقطع، ولكن النبي ﷺ مع هذا لم يكن يود أن يساير اليهود في خصومتهم، ولا أن يبادلهم عداوة بعداوة، بل كان يتلمس الفرص تلمساً ليصلح ما بينه وبينهم؛ ولم يكن يبايهم بعدوان قط حتى يُعْذِر إليهم، وحتى يبذل كل جهد مستطاع في دعوتهم إلى السلام والوئام والتعاون. فلما تولى زعامة اليهود في خيبر أسير بن رزام هذا، وعلم رسول الله ﷺ أنه يُعد لحربه، رأى أن يدعوه قبلُ إلى السلم، فلعله أن يكون أبعد نظرًا ممن سبقه من الزعماء، فينقذ قومه من سعي الحرب التي أكلتهم. فبعث إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثين من رجال الأنصار، فقدموا عليه في خيبر فقالوا له: "هل نحن

آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: "نعم ، ولى منكم مثل ذلك"؟ قالوا: "نعم". ثم عرضوا عليه أن يترك ما عزم عليه من الحرب، وأن يقدم على رسول الله ليحالفه ويوليه على خير، ويعيش أهلها مع المسلمين في سلام، فاستجاب لذلك أول الأمر، وخرج مع المسلمين في ثلاثين رجلاً من اليهود، قاصداً إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما قطع مرحلة من الطريق ندم على خروجه، وهم بالغدر بمن آمنهم وأمنوه، وأهوى إلى سيف عبد الله بن رواحة يريد أن ينتزعه منه ليقتله، ففطن لذلك عبد الله فقال له: "أعدراً يا عدو الله؟" ثم نزل فضربه بالسيف ضربة أطاحت فخذة بساقه، فسقط عن بعيره، ثم لم يلبث أن هلك، ومال المسلمون على من كان معه من اليهود فقتلوه.

كان في عزم اليهود أن يغزوا المدينة فبادرهم الرسول بالغزو في بلادهم

ولما قام سلام بن مشكم زعيماً على يهود خيبر بعد أسير بن رزام، كان رأيه في محاربة المسلمين كراي من سبقه من زعماء يهود. وهكذا ظل اليهود مقيمين على نية الغدر، مبيئين لفكرة الانتقام، عازمين على القضاء على الإسلام بكل وسيلة ممكنة.

فلما تم الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش في الحديبية واتفقوا على أن يتهادنوا ويأمن بعضهم بعضاً، يشس اليهود من معاونة العرب لهم، وصرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطراً يتهدد كيان اليهود في الحجاز، وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتبءاء، ثم يزحفوا على يثرب، دون أن يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة.

”وقد علم الرسول ﷺ بما يدور في خلد يهود خيبر، فأخذ يتهيأ لقتالهم“^(١) وكانت خطته، صلى الله عليه وسلم، أن يفاجئ أعداءه قبل أن يفاجئوه، ولكن عبد الله بن أبي - فيما يقول بعض الرواة - أرسل إلى يهود خيبر يقول لهم: ”إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم“. فلما سمعوا بقصده أخذوا يُعيدون له، فكانوا يخرجون كل يوم في عشرة آلاف مقاتل، متسلحين مستعدين صفوفاً ثم يقولون: ”محمداً يغزونا..؟ هيهات هيهات..!“ وأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون «الكتيبة» وجمعوا المقاتلة في حصون «النطاة».

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب.

مناطق خيبر وحصونها

وكانت بلاد خيبر مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية : الأولى منطقة النظاة، والثانية منطقة الشَّق، والثالثة منطقة الكتيبة. وكان في كل منطقة عدة حصون منيعة؛ فمن حصون منطقة النظاة حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير وهو حصن قَلَّة؛ ومن حصون منطقة الشق حصن أبي، وحصن البريء؛ ومن حصون منطقة الكتيبة حصن الوطيح، وحصن السُّلالم، وحصن القمُوص وهو حصن نِزَار. وكانت تلك الحصون منيعة على رؤوس الجبال، وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال، وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا، وأوفرها مالا وأكثرها سلاحًا. ولكن اليهود - كعادتهم - يخشون الحرب في الميدان، ولا يجارئون إلا أمام الحصون، حتى إذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم. وقد سجل القرآن عليهم هذه الخصلة من خصال الجبن، إذ يقول الله تعالى في تهوين شأنهم للمؤمنين :

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْىٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون^(١).

وعرف الرسول ﷺ فيهم هذه الطبيعة، فوضع خطته على أساسها حين صار إليهم ليغزوهم في عُقر دارهم.

وتقع خيبر من المدينة على نحو مائة ميل إلى الشمال، بينها وبين الشام، وهي مسافة تقطع بالابل في خمسة أيام. وكانت واحةً كبيرة خصبة، ذات حصون ومزارع ونخل كثير؛ ولم يكن سكانها مجتمعين في صعيد واحد، بل كانوا متفرقين في الأودية المتجاورة، يقطنون بيوتاً حصينة وسط النخيل والحقول، وكانت لمنعة حصونها وطبيعة أرضها لا يظن اليهود أن الرسول يستطيع أن يغزوها.

كان غزو خيبر مقصوداً على من شهد الحديبية

وقد خرج صلى الله عليه وسلم إلى خيبر في شهر المحرم من السنة السابعة (أغسطس ٦٢٨) في ألف وستائة من أصحابه، بينهم مائتان من الفرسان على ظهور الخيل؛ واستخلف على المدينة سباع بن عرفة. وكان قد استنفر من حوله من

(١) سورة الخثر الآية ١٤.

الأعراب ممن شهد الحديبية يغزون معه، فجاء الذين تخلفوا عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه، طمعاً في الغنيمة، فقال لهم: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا».. وسار صلى الله عليه وسلم بجيشه سيراً حثيثاً فقطع المسافة على طولها في ثلاث مراحل مجهدة، حتى بلغ أرض خيبر في فجر اليوم الرابع. فلما بلغها نزل منها بواد يقال له «الرجيع»، بين خيبر وغطفان، ليحول بين غطفان وبين أن يُمدّوا أهل خيبر، وكانوا مظاهرين لهم.

ويقول بعض الرواة: إن غطفان أرادوا أن يظاهروا يهود خيبر، ولكنهم بعد ما خرجوا سمعوا صياحاً في ديارهم، فخيل إليهم أن المسلمين قد خالفوهم إلى أموالهم وأهلهم، فرجعوا. ويقول آخرون: إن رسول الله ﷺ طلب إلى غطفان ألا يعينوا يهود خيبر، على أن يعطيهم من خيبر شيئاً ستماء لهم. وعلى كل فإن غطفان لم يعينوا يهود خيبر في هذه الغزوة، وخلّوا بين رسول الله وبينهم.

اعتصم اليهود بمصونهم حين رأوا المسلمين

ونزل صلى الله عليه وسلم قريباً من حصون النطاة، فقال له الحباب بن المنذر: «إن أهل النطاة ليس قوم أبعد مدى

منهم، ولا أعدلَ رمية منهم؛ وهم مرتفعون علينا وهو أسرع
لا نخطأ رميهم، ولا نأمن من بيّاتهم، يدخلون في حُمر
النخل؛ فتحولَ يا رسول الله". فقال رسول الله، صلى الله
عليه وسلم: «أشرت بالرأى». وتحول إلى مكان بعيد عن مدى
النبيل فعسكر به. وعَمَّى الله على أهل خير ما كان من أمر
رسول الله ﷺ وجيشه، فباتوا بيّات المطمئن الآمن؛ حتى إذا
أصبحوا خرج عما لهم بمساحيهم ومكائتلهم غادين إلى أعمالهم.
فلما رأوا رسول الله وأصحابه قد نزلوا بساحتهم، أخذوا من
الرعب والهول، فجعلوا يصيحون: "محمد والخميس..! محمد
والخميس..!" وأدبروا هارين إلى قومهم، ينذرونهم بما
ينتظرهم من الويل وسوء المصير. وكأنا رأى رسول الله ﷺ أن
يزيد في فرع القوم، فصالح في أعقابهم مكبرا: «الله
أكبر، خربت خير! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح
المنذرين»..

واستيقظ أهل خير على هذا الصياح المرعب، فإذا هم قد
أحيط بهم، وأصبحوا وليس لهم بد من أن يسلموا أو يقاتلوا
إلى آخر رجل منهم؛ وأخذت عليهم المفاجأة كل طريق
للهجوم، فلم يبق أمامهم وسيلة إلا الدفاع. وهنا عاد اليهود إلى
طبيعتهم، فلجأوا إلى الحصون فاعتصموا بها، وظنوا أنهم

مَا نَعْتُهُمْ حَصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ^(١).

* * *

وكان رسول الله ﷺ يعلم من طبائع اليهود شدة الحرص
على المال، وأن ما لهم قد يكون أحب إليهم من أنفسهم؛ فرأى
أن يرهبهم بإتلاف بعض ما لهم، لعلهم يسلمون إليه دون
قتال؛ فأمر بقطع نخيلهم؛ فأخذ المسلمون يقطعونها حتى قطعوا
نحو أربعمئة نخلة. فلما رأى تصميم اليهود على الحرب نهى عن
قطع النخيل، وابتدأ القتال معهم في حصن ناعم. وكان اليهود
قد حشدوا قواتهم في ذلك الحصن، وجعلوا قائدهم عليه سلام
ابن مشكم، وأعدوا أنفسهم لمعركة طاحنة.

طبيعة القتال في أرض خيبر

”وبدأ النبي معركة الحصار في قتال عنيف، قريب المرمى
متصل الاشتباك، واليهود يستميتون في الدفاع عن كل شبر من
الأرض، لا يزلون عنه إلا مرغمين؛ وكلما حاولوا الخروج من
الحصن دحروهم المسلمون، فارتدوا إلى الحصن ليحتملوا وراء
جدرانه القوية“^(٢).. وطال الحصار واشتد القتال حتى جُهد

(١) سورة الخشر الآية ٢

(٢) محمد القائد.

المسلمون، ومكث رسول الله ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل هذا الحصن، وهو يعطى الراية فى كل يوم واحدًا من أصحابه، ويبعثه إلى الحصن، فيرجع ولم يصنع شيئًا، حتى فتحه الله على يد على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفى معركة هذا الحصن قتل البطل اليهودى «مَرْحَبُ»، وكان من أشجع شجعان اليهود؛ قتله على بن أبى طالب وهو يبارزه؛ وقيل: إن الذى قتله هو محمد بن مسلمة. وفى معركته أيضًا قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، ألقيت عليه رَحَى وهو مستند إلى جدار الحصن، يستظل به فى يوم شديد الحر. وفى أثناء هذا الحصار تُوفى زعيم اليهود سلام بن مشكم، فتولى القيادة بعده الحارث بن أبى زنب.

ولما سقط حصن ناعم فر اليهود إلى الحصن الذى وراءه - وهو حصن الصعب بن معاذ - فاعتصموا به، وقاتلوا المسلمين قتالا شديداً، وحملوا عليهم حملة منكراً؛ فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه؛ وثبت الحباب بن المنذر، رضى الله عنه، فحضر رسول الله الناس على الجهاد فأقبلوا، وزحف بهم الحباب بن المنذر، فانهمز اليهود وأغلقوا الحصن عليهم؛ ولكن المسلمين اقتحموا الحصن، وجعلوا يقتلون ويأسرون حتى فتحوه عَنوة.

وقد وجد المسلمون في ذلك الحصن من الشعير والتمر
والسمن والزيت والعسل والمتاع شيئاً كثيراً، وكانوا قد أصابتهم
مجاعة قبل أن يفتحوه حتى أكلوا لحوم الخيل. فلما فتحه الله
عليهم ووجدوا به ما وجدوا من الطعام والودك^(١)، خشي رسول
الله ﷺ عليهم أن تشغلهم الغنيمة عن القتال، فبعث منادياً
ينادى في الناس: «كلوا واعلفوا ولا تحملوا»: أي
لا تخرجوا بشيء منه إلى بلادكم.

خونة اليهود يدلون الرسول على مخابثهم

وفي ذلك الحصن وجد المسلمون في بيت تحت الأرض
منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً وكثيراً من آلات الحرب،
فانتفعوا بها في هذه المعركة أيما انتفاع. وكان الذي دلهم عليه
رجل من اليهود، أسره المسلمون وهم يحاصرون حصن ناعم،
فخاف على نفسه أن يقتل، فاستأمن رسول الله ﷺ على نفسه
وأهله حتى أمنه، ثم أخبره بما كان في حصن الصعب من
آلات الحرب، ودله على مكانها حين فتح.

ولما سقط حصن الصعب بن معاذ فر اليهود إلى حصن

(١) الودك: السمن والزيت ونحوهما.

الزبير، وكان حصناً منيعاً قائماً على رأس قُلة^(١)؛ فحاصره المسلمون ثلاثة أيام، وظل اليهود معتصمين به لا يخرجون منه، فاستعصى على المسلمين فتحه. حتى علم رسول الله ﷺ من أحدهم أن وراء الحصن جدولاً يُمدُّ أهله بالماء، فأمر بقطعه عنهم فلما قطع عنهم الماء خرجوا من الحصن، وقاتلوا عنه أشد قتال، حتى قتل يومئذ من المسلمين نفر، وأصيب من اليهود عشرة؛ ثم فتحه الله على المسلمين، فكان آخر حصن في منطقة النطاة. وسقوط هذا الحصن سقطت منطقة النطاة كلها في أيدي المسلمين، وفر اليهود منها إلى منطقة الشَّق، فاعتصموا بأول حصن من حصونها وهو حصن أبي.

وكان حصن أبي على جبل يقال له «ثُمران»، فحاصره المسلمون، فقاتلهم اليهود قتالاً شديداً، وتبارز في معركته شجعان الفريقين، ثم تحامل المسلمون على الحصن، يتقدمهم أبو دجانة الأنصاري حتى دخلوه. فهرب من فيه من المقاتلة، وجعلوا يقتحمون الجُدُر إلى حصن البرىء، فتمنعوا به أشد التمتع.

وزحف رسول الله ﷺ إليهم في أصحابه، فكانوا أشد أهل الشق رمياً بالنبال والحجارة، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله

(١) القلة: قمة عالية.

وَعَلِقَ بِهَا: فَأَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنْصَبَ عَلَيْهِ الْمُنْجِنِقُ،
فَوَقَعَ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ الرَّعْبَ، فَأَسْلَمُوا الْحَصْنَ وَهَرَبُوا. وَبِذَلِكَ
سَقَطَتْ مَنَاطِقُ الشَّقِّ كَمَا سَقَطَتْ مِنْ قَبْلِ مَنَاطِقِ النَّطَاةِ.

وَذَهَبَ الْيَهُودُ إِلَى مَنَاطِقِ الْكُتَيْبَةِ فَاعْتَصَمُوا فِيهَا بِحَصْنِ
«الْقَمُوصِ»، وَهُوَ حَصْنُ بَنِي الْحَقِيقِ؛ وَكَانَ مِنَ الْحَصُونِ الْمُنِيْعَةِ
الْقَوِيَّةِ، وَكَانَ تَحْتَ قِيَادَةِ بَعْضِ الْأَشْرَافِ مِنْ بَنِي الْحَقِيقِ، وَكَانَ
فِيهِ نِسَاءٌ هَذِهِ الْأَسْرَةُ. فَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ إِلَى
حَصْنِ الْقَمُوصِ فَحَاصَرَهُ عَشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ فَتَحَهُ اللَّهُ عَلَى يَدِ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَدْ سُيِّمَ مِنْ هَذَا الْحَصَنِ
جَمْعٌ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، مِنْ بَيْنِهِمْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ؛ وَقَدْ
اصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ السَّبَايَا، فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا،
فَكَانَتْ مِنْ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

سَقُوطُ خَيْبَرَ

وَلَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَصُونِهِمْ
مَا افْتَتَحَ، وَحَازَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا حَازَ، انْتَهَوْا إِلَى حَصْنِ الْوُطَيْحِ
وَالسَّلَامِ، وَكَانَ آخِرُ حَصُونِ خَيْبَرَ؛ فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضِعِّ
عَشْرَةِ لَيْلَةٍ، حَتَّى إِذَا أَيَقُنُوا بِالْهَلَكَةِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ
يَسْتَسْلِمُوا بِحَقْنِ دِمَائِهِمْ.. وَنَزَلَ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ،

فصالح رسول الله على أن يحقن دماء من في حصونهم من
المقاتلة، ويترك الذرية لهم، ويخرجون من خير وأرضها
بذرائعهم، ويخلون بين رسول الله وبين ما كان لهم من أرض
ومال وخيل وسلاح. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:
«وَبَرِّتْ مِنْكُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا...»
فصالحوه على ذلك.

وتسليم حصنى الوطيح والسلام سقطت خير كلها في أيدي
المسلمين، وغنم المسلمون ما كان فيها من غنائم كثيرة.

الصلح بين اليهود والمسلمين

ولما تم الصلح بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم وأهل
خير، رغبت نفوسهم عن الهجرة من بلادهم، فسألوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن يخليهم ليعملوا في الأرض ويعطوه
نصف ثمارها، وقالوا له: «نحن أعلم بها منكم وأعمر لها».
فأبقاهم رسول الله ﷺ، في الأرض يعملون بها، وصالحهم على
النصف، على أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم.

يهود فدك ووادي القرى يئنون إلى السلم

ولما سمع يهود «فَدَك» بما كان من الصلح بين رسول الله
ﷺ وأهل خير، رغبوا عن الحرب وجنحوا إلى السلم، وعثوا

إلى رسول الله أن يصالحوه على ما صالحه عليه أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك. وتم الصلح بينهم وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دون قتال؛ فكانت خيبر فَيْئًا بين المسلمين لأنهم فتحوها غَنَوةً. وكانت فذك خالصة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يُوجِفُوا عليها بخيل ولا ركاب^(١).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر انصرف إلى «وادي القرى»، فحاصر أهلها ليالي حتى سلموا وأذعنوا للصلح، فصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر. أما يهود «تَبَاء» فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال. وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في بلاد العرب، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما صاروا بعد صلح الحديبية بمأمن من ناحية الجنوب.

تقسيم الغنائم

وقسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر بعد أن خَمَسَهَا، فأعطى الراجل سهمًا وأعطى الفارس ثلاثة أسهم، وأعطى من خُمسه ما أراه الله؛ فأعطى أهله، وأعطى رجالا ونساء من بني عبد المطلب، وأعطى اليتيم والسائل. أما من شهد خيبر من

(١) لم يوجفوا: لم يأخذوها بقتال.

العبيد والنساء فرَضَخَ لهم^(١) شيئاً من الغنيمة ولم يُنْهَمْ لهم.
وبينما المسلمون في فرحهم بفتح خير، قدم عليهم جعفر بن
أبي طالب فيمن هاجر معه من المسلمين إلى الحبشة؛ فسرَّ
رسول الله ﷺ سروراً عظيماً بقدمهم، وضم جعفرًا وقبله بين
عينيه وقال: «ما أدرى بأبيها أنا أسرَّ^(٢)، بفتح خير، أم بقدم
جعفر؟»

(١) رَضَخَ هم: أعطاهم قليلاً.

(٢) أسرَّ: أكثر سروراً.

مغانم خيبر

كانت مغانم خيبر شيئاً كثيراً جداً

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

فسر جمهور المفسرين «الفتح القريب» بفتح خيبر و «المغانم الكثيرة» بمغانمها. وكان فتح خيبر بعد «بيعة الرضوان» بنحو شهرين، وكانت مغانمها أكثر مغانم حصل عليها المسلمون منذ غزوا في سبيل الله حتى ذلك اليوم؛ فقد كانت خيبر واحة خضراء في صحراء مقفرة، وكانت أرضها غنية بالنخيل والزرع، وكانت غلاتها من التمر والقمح والشعير شيئاً كثيراً، فقد روى أن عبدالله بن رواحة خَرَصَ^(٢) ما فيها من التمر بأربعين ألف وِسْقٍ، والوسق حِمْلٌ بعير؛ كما روى أن «الكتيبة» وحدها

(١) سورة الفتح آيتا ١٨ ، ١٩ .

(٢) الخرص: تقدير الشيء وزناً أو كيلاً أو عدداً على وجه التقريب.

- وهي خمس الله ورسوله - كان بها أربعون ألف عِدْق^(١)، وكانت مُحَرَّص ثمانية آلاف وسق من التمر، وربما اجتمع فيها ألف صاع^(٢) من التوى، وكان يزرع فيها الشعير فيحصدون منه ثلاثة آلاف صاع؛ هذا إلى ما كان فيها من الأنعام والمتاع والخيل والسلاح.

روى البخارى - بسنده إلى عكرمة - أن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قالت: «لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر». وروى كذلك - بسنده إلى سالم مولى عبدالله بن مطيع - أنه سمع أبا هريرة يقول: «افتتحنا خيبر فلم نغتم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط».

وروى أبو داود - بسنده إلى عقبة بن عامر - «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال لرجل: «أترضى أن أزوجك فلانة؟ قال: "نعم". وقال للمرأة: «أترضين أن أزوجك فلاناً؟ قالت: "نعم". فزوج أحدهما صاحبه، فدخل بها الرجل ولم يَفْرِض لها صداقاً ولم يعطها شيئاً. وكان ممن شهد الحديبية، وكان من شهد الحديبية له سهم بخير. فلما حضرته الوفاة قال: "إن رسول الله زوجنى فلانة ولم أفرض لها صداقاً ولم أعطها

(١) العِدْق (بالفتح): النخلة بجمعها، و (بالكسر) الكباسة: أى العرجون يبلعه.

(٢) الصاع: قدحان وثلاث بكيل مصر.

شيئاً. وإن أشهدكم أني أعطيتها من صدقاتها سهمي بخير".
فأخذت سهماً فباعته بمائة ألف^(١). وهو سهم واحد من ألف
وثمانمائة سهم قسمها رسول الله على أهل الحديبية.

تقسيم المغنم

قال ابن إسحاق: "كانت المقاسم على أموال خيبر على
الشق ونظاة والكتيبة، فكانت الشق ونظاة في سُهْمَانِ المسلمين،
وكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبي، صلى الله عليه وسلم،
وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطُعمَ أزواج
النبي، صلى الله عليه وسلم، وطعم رجال مشوا بين رسول الله
وبين أهل فذك بالصلح.. وقُسمت خيبر على أهل الحديبية،
من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها.. وكانت عدة الذين
قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ألف سهم وثمانمائة،
برجالهم وخيلهم: الرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس،
فكان لكل فرس سهْمَانِ ولفارسه سهم، وكان لكل راجل سهم".

وقسم رسول الله ﷺ الكتيبة بين قرابته ونسائه. فأطعم كل
امراًة من أزواجه ثمانين - وقيل مائة - وسق من تمر، وعشرين

(١) هكذا ذكر النووي في نهاية الأرب. والمظنون أنها مائة ألف درهم.

وسقاً من شعير، وللعباس بن عبد المطلب مائتي وسق^(١)،
ولفاطمة وعلى ثلاثمائة وسق، ولأسامة بن زيد مائتين وخمسين
وسقاً؛ وأعطى رجالاً ونساء من المسلمين بحسب حاجتهم. وقد
فصل ابن إسحاق هذه الأعطيات بأسمائها وأعدادها، فبلغت
مقاديرها نحو ثلاثة آلاف وسق من القمح والشعير والتمر والنوى.

هذا على اعتبار أن خير قسمت بكماها بين الغنائين؛ وقد
رُوى أن خير جميعها لم تقسم، وإنما قسم النبي ﷺ نصفها بين
الناس وعزل النصف الثاني لمن نزل به من الوفود والأمنور
ونواب الناس. روى ذلك أبو داود بسنده إلى سهل بن أبي
حَثمَةَ. قال ابن كثير: "وقد احتج بهذا مالك ومن تابعه على
أن الإمام^(٢) "خير في الأرض المغنومة، إن شاء قسمها، وإن شاء
أرصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم بعضها وأرصد بعضها
لما ينويه في الحاجات والمصالح".

وعلى هذه الرواية يكون ما ذكر من هذه الأقسام من نصف
خير لا من خير كلها، مما يدل على أن خير كانت مغنماً
عظيماً، فتح الله به على المسلمين أبواباً من الخير واسعة. فإذا

(١) لا يفصل القرطبي في «إمتاع الأسماع» نصيب العباس ومن بعده إن كان ثمرًا أو
شعيرًا أو هما معًا.

(٢) الإمام: هو أمير المؤمنين أو من ينوب عنه من الحكام.

أُضيف إلى غلات خيبر ما كان من غلات فذك ووادي القرى
وتيماء، تبين لنا مبلغ الغنم الذي أفاده المسلمون من هذا الفتح،
والذي أثابهم الله به على ما كان من إخلاصهم في بيعه
الرضوان.

بهذه الغزوة أمن المسلمون شر اليهود

هذا إلى ما كان من إخضاع ذلك العدو المبين، الذي جعل
سلاحه المكر والغدر، والكذب والتدليس، والفساد بين
المسلمين، والتشكيك فيما أنزل الله على رسوله، والتأليب على
الإسلام وأهله؛ وجعل هدفه أن يقضي على هذا الدين بكل
وسيلة مستطاعة. فلما خضد الله شوكته وأذهب صولته وأذل
كبرياءه، أمن المسلمون شر هذا العدو، كما أمنوا شر قريش
بصلح الحديبية؛ وهذا كل ما كان ينبغي رسول الله ﷺ من
مقاتلة اليهود.

فأقامهم رسول الله في الأرض يعملون

بها وتزوج منهم صفية بنت حيي

من أجل هذا رضى صلى الله عليه وسلم أن يقيم اليهود في
أرض خيبر ويشاطرهم ثمارها، بعد أن نزل من نزل من أهلها

على الجلاء وترك الأموال^(١)؛ ذلك أنه لم تكن هناك غاية يبغيها رسول الله من تقتيلهم أو إخراجهم من الأرض بعد أن ألقوا سلاحهم، وبعد أن خُصِدَت شوكتهم وأمن المسلمون جانبهم.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن تقوم العلاقة بينه وبينهم على أساس من المودة والصفاء، لا على العداوة والبغضاء؛ فاتخذ فيهم صهراً؛ واصطفى من نسائهم صفية بنت حى، فخيرها بين أن يُعتَقها ويتزوجها وبين أن يُلحقها بأهلها، فاختارت أن تكون له زوجة؛ فأعتقها وجعلها من نسائه، ولم يدخر وسعاً في تطيب نفسها، وإزالة ما كان يستكن في قلبها من كوامن العداوة، حتى روى عنها أنها قالت: "كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أبغض الناس إلى: قتل زوجى وأبى! فما زال يعتذر إلى ويقول: «إن أباك أَلَب على العرب، وفعل وفعل...» حتى ذهب ذلك من نفسى".

عاملهم بالرفق والعدل

وكان صلى الله عليه وسلم رفيقاً بهم، حريصاً على إقامة العدل في معاملتهم، جاهداً في أن يزيل من نفوسهم آثار هذه العداوة؛ فلم تكن العداوة بينه وبينهم عداوة شخصية، إنما كانت

(١) أى بعد أن قبلوا ذلك وسلموا به.

خلافًا على العقيدة التي غيروا فيها وبدلوا، ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾^(١).

فقد رُوي أن بلالا مر بصفية وابنة عم لها على قتلى اليهود، فصاحت ابنة عمها صياحا شديدا؛ فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال وقال: «ذهبت الرحمة منك؟ تمرّ بجارية حديثة السن على القتلى!!» فقال: «يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها»... وأقسم لا يفعل ذلك أبدا.

وروي أن اليهود شكروا إلى رسول الله ﷺ أن المسلمين يقعون في حرتهم ويقلهم بعد الصلح؛ فأمر رسول الله ﷺ بجمع المسلمين ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن يهودَ شكوا إلى أنكم وقعتم في حظائرهم؛ وقد أمّناهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم في أراضيهم، وعاملناهم^(٢)». وأنه لا تحلُّ أموال المعاهدين إلا بحقها... فكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئا إلا بضمن.

وكان صلى الله عليه وسلم يبعث عبدالله بن رواحة إلى أهل

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٢) عاملناهم: عاهدناهم على أن تكون الأرض هم يعملون فيها ولنا نصف ثمارها وغلاتها.

خير، خارصاً^(١) بين المسلمين ويهود، فيخْرُص عليهم؛ فإذا قالوا: "تعذبت علينا"، قال: "إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا". فتقول يهود: "بهذا قامت السموات والأرض!".

وروى البخارى - بسنده إلى أبى سعيد الخدري وأبى هريرة - أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خير، فجاء بتمر جنيب^(٢)، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أكل تمر خير هكذا؟» قال: "لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة". فقال: «لا تفعل. بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع^(٣) بالدراهم جنيباً».

وكان بين المغانم التي غنمها المسلمون من خير صحائف من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها فأمر النبي ﷺ بتسليمها إليهم. وفي ذلك يقول الدكتور إسرائيل ليفنسن: "يسدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حيث تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ قبل الميلاد،

(١) خارصاً: مقدراً مقادير الغلات والثمار، وقاسمها بين الفريقين.

(٢) الجنيب: أجود التمر.

(٣) ابتع: أى اشتر.

إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم؛ وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة. هذا هو البؤس الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام".

لم يحفظ اليهود الجميل وجروا على طبيعتهم في الغدر هل قدر اليهود كل هذا؟ وهل حفظوا هذا الجميل؟ وهل أدركوا أن رسول الإسلام لم يكن يريد بهم شرًا، وأن مبادئ الإسلام إنما تقوم على الحق والعدل واحترام الناس، وأن الإسلام يعدل في أعدائه كما يعدل في أوليائه؟ وهل عرفوا أن محمدًا أصدق الناس قولًا، وأكثرهم عدلًا، وأظهرهم قلبًا، وأرقهم عاطفة؟

لم يقدر اليهود من كل هذا شيئًا، بل ظلوا على ما هم عليه من خبث الطويّة ونكران الجميل، وظلت قلوبهم تغلى بالحق على رسول الله ﷺ فعادوا إلى قديم عاداتهم يفكرون في الغدر به ويتآمرون للقضاء عليه؛ فوكلوا أمر ذلك إلى امرأة من نسائهم الموثورات، فذبرت لذلك حيلة ماهرة.

قال ابن إسحاق: «فلما اطمأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أهدت له زينب ابنة الحارث - امرأة سلام بن مشكم -

شاة مصلية^(١)، وقد سألت: "أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟" فقليل لها: "الذراع". فأكثرت فيها من السم، ثم سكت سائر الشاة ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاك منها مضغعة فلم يسغها. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها ثم قال: «إن هذا العظيم ليخبرن أنهن مسموم»! ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟» قالت: «بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر». فتجاوز عنها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومات بشر من أكلته التي أكل.

اهتمام قريش بأنباء خيبر

كان فتح خيبر حدثاً عظيماً ارتجت له قريش، وكان اهتمامها به بالغاً حده؛ فقد أخذت ترقب النتيجة وتتخربص بها منذ علمت أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى خيبر. وكانوا في ذلك فريقين: فريق ينظر إلى قوة اليهود ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم، وإلى ما كان من التحالف بينهم وبين غطفان.. فيقول

(١) مصلية: مشوية.

”تظهر يهود وحلفاؤها“. وفريق ينظر إلى ماضى المسلمين وما كان من قوة قلوبهم، ودقة نظامهم، وحسن تعاونهم، واستهانتهم بالموت فى سبيل عقيدتهم.. فيقول: ”يظهر محمد وأصحابه“.. وتحمس كل فريق لرأيه حتى كان بينهم على ذلك تراهن عظيم، وجعلوا يتسّمون الأخبار ويتربّون النتائج بشوق شديد وصبر فارغ، حتى لقد كانوا يقفون بأفواه الطرق يسألون كل قادم عما كان بين محمد ويهود.

(قالوا): «وكان الحجاج بن علاط السُّلمى قد أسلم وشهد خير مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فلما فُتحت خيبر قال: ”يا رسول الله، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة، ومال مفرّق فى تجار أهل مكة، فأذن لى يا رسول الله“. فأذن له، فقال: ”إنه لابد لى يا رسول الله من أن أقول“. قال: «قل». قال الحجاج: فخرجت، حتى إذا قدمت مكة وجدت بشيئة البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه سار إلى خير، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة وجالا، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان. فلما رأوني قالوا: ”الحجاج بن علاط عنده - والله - الخبر!“

(قال): ولم يكونوا علموا بإسلامى. فقالوا: ”أخبرنا

يا أبا محمد، فإنه بلغنا أن القاطع^(١) قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز". (قال): قلت: "قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم". فالتَّبَطُّوا بجنبي ناقتي^(٢) يقولون: "إيه يا حجاج"! (قال): قلت: "هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسراً! وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم"!.. فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: «لقد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَّم به عليكم فيقتل بين أظهركم»! (قال): قلت: "أعينوني على جمع مالي بمكة على غُرمائي، فإنني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك". فقاموا فجمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به. (قال): وجئت صاحبتى فقلت: "مالي! - وقد كان لي عندها مال موضوع - لعلّي ألحق بخيبر فأصيب من فُرص البيع قبل أن يسبقني التجار".

(قال): فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي، وأنا في خيمة من خيم التجار، فقال: «يا حجاج، ما هذا الخبر الذي جئت به»؟ قلت: هل

(١) يعنون رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

(٢) التبطوا: أسرعو فأحاطوا بها.

عندك حفظ لما وضعتُ عندك؟ قال: «نعم». قلت: «فاستأخر عني حتى أفرغ». (قال): فلما فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت الخروج، لقيت العباس فقلت: «احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل - فإن أخشى الطلب - ثلاثاً، ثم قل ماشئت». قال: «أفعل». قلت: «فإنى - والله - تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم - يعني صفية بنت حمى بن أخطب - ولقد افتتح خيبر وانتشل^(١) ما فيها وصارت له ولأصحابه». قال: «ما تقول يا حجاج!» قلت: «إي والله، فاكتم عني، ولقد أسلمت، وما جئت إلا لأخذ مالي فرقاً^(٢) من أن أغلب عليه. فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك، فهو - والله - على ما تحب»..

(قال): وسرت.. حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس حلة له، وتخلّق^(٣)، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها. فلما رآوه قالوا: «يا أبا الفضل، هذا - والله - التجلد لحراً المصيبة». قال: «كلا! والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم

(١) انتشل: استخرجه وأحرزه.

(٢) فرقاً: خروفاً.

(٣) تخلّق: تعطر وتطيب.

وما فيها فأصبحت له ولأصحابه». قالوا: «من جاءك بهذا الخبر؟» قال: «الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله وانطلق، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه». قالوا: «يا لعباد الله!! أنفلتت عدو الله: أما - والله - لو علمنا لكان لنا وله شأن!..» ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر^(١).

كان انتصار المسلمين على يهود خيبر موضع دهشة الناس وعجبهم

هكذا كان وقع الخبر شديداً على نفوس قريش، ولا شك أنه كان كذلك مذهلاً وعجيباً؛ فإن قريشاً لم تكن تتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهى ما هى من القوة والمنعة والحصانة، ولم تكن تظن أن محمداً وأصحابه يبلغون من القوة هذا المبلغ العجيب.. والحق أن انتصار المسلمين على يهود خيبر يدعو إلى التفكير والتأمل؛ فقد كان اليهود من القوة الظاهرة بحيث لم يكونوا يُغلبون: كانت عدتهم عشرة آلاف مقاتل مدربين على فنون القتال؛ وكانوا أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً في الحرب، ومهارة في الرمي، وشجاعة في القتال؛ وكانت لهم حصونهم القوية، وآلاتهم الثقيلة، وزادهم الوفير؛ وكانت لديهم

(١) بهية الأرب.

كل أسباب الحمية التي تدعو إلى الاستماتة في القتال، من حماية للحُرْم، وذود عن الوطن، ودفع للعدوان.. ولم يكن المسلمون في عددهم يزدون على ألف وستائة، ولم يكن معهم من آلات القتال سوى السيوف والرماح والقسيّ والسهام، ولم يكن وراءهم حصن يحتمون به ولا ظهر يلجأون إليه، وكانوا على ذلك في قلة من الطعام وشح من القوات وبعد من المدد.

ومع كل هذا التباين الواضح بين الفريقين في العدد والعدة، وفي المنعة والقوة؛ ومع هذا الفارق الملموس في تكافؤ الفرص وتبيؤ الأسباب، انتصر المسلمون على اليهود هذا الانتصار الباهر.. أليس هذا أمرًا يدعو إلى التأمل والتفكير؟

لا شك أن ذلك النصر العجيب قد بهر قريشًا وأذهلها، وبهر معها العرب وغير العرب في أنحاء الجزيرة. ولعل ما كان من إذعان يهود فدك وتيأء دون قتال، وما كان من انهيار وادي القرى واستسلامها بهذه السرعة، كان أثرًا من آثار هذا البهر الذي أخذ بالباب الناس فأذهلهم، وملأ قلوبهم بالرعب من هذه القوة الخارقة، التي لا تقوم لها كثرة ولا تعوقها حصون، ولا يحول بينها وبين الوصول إلى غاياتها شيء من الأشياء. ولقد كان يهود خيبر من الثقة بأنفسهم بحيث لا يظنون أن رسول الله يغزوهم، ﴿وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ^(١).
 نعم، فقد كان الرعب الذى قذفه الله فى قلوب اليهود،
 من أهم العوامل فى ظهور المسلمين عليهم. وصدق رسول الله
 ﷺ إذ يقرر هذه الحقيقة فيقول: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ
 شهر.. ويعجى فى هذا المقام قول القرطبي فى تفسير قوله
 تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾؛ وذلك إذ
 يقول - بعد أن رجَّح أنها خير وعدَّها الله نبيَّه قبل أن يفتحها
 - : «معنى قد أحاط الله بها : أى أعدَّها لكم، فهى كالشئ
 الذى قد أحيط به من جميع نواحيه فهو محصور لا يفوت، فأنتم
 وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم».
 وسواء أكان المقصود خير أم سواها مما كان من الفتح
 الإسلامية بعد خير، فإنه تصوير دقيق لما كان من تأييد الله
 للمسلمين، فيما فتحه عليهم من أقطار الأرض.

قضت غزوة خير على استقلال اليهود ونفوذهم فى الحجاز

كان من نتائج خير أن قُضى قضاء تاماً على القوة السياسية
والاقتصادية والدينية التى كانت لليهود فى أقاليم الحجاز، وأخذت
ظلالهم تتقلص شيئاً فشيئاً حتى أُنحَت آثارهم تماماً؛ فقد بقى

(١) سورة الحشر الآية ٢٠ .

اليهود على عهد رسول الله ﷺ في الأرض يعملون بها على ما عاهدهم عليه، فلما تَوَفَّى الله نَبِيَّهٗ أَقْرَاهَا أَبُو بَكْرٍ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى الْمَعَامِلَةِ الَّتِي عَامَلَهُمْ عَلَيْهَا الرَّسُولُ حَتَّى تُوَفَّى؛ وَأَقْرَاهَا عَمْرٌ صَدْرًا مِنْ إِمَارَتِهِ؛ ثُمَّ بَلَغَ عَمْرٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فِي وَجْعِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ: «لَا يَجْتَمَعَنَّ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ».. فَفَحَصَ عَمْرٌ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَهُ الثَّبْتُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَدْنَى فِي إِجْلَاتِكُمْ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا يَجْتَمَعَنَّ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ»؛ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْيَهُودِ فَلْيَأْتِنِي أَنْفِذْهُ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْيَهُودِ فَلْيَتَجَهَّزْ لِلْجَلَاءِ».. فَأَجْلَى عَمْرٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ. وَقَدْ أَخْرَجَ عَمْرٌ يَهُودَ خَيْبَرَ وَفَدَكَ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَهْلَ تِجَاءٍ وَوَادِي الْقُرَى لِأَنَّهَا دَاخِلَتَانِ فِي الشَّامِ.. وَكَانَ عَمْرٌ يَرَى أَنَّ مَا دُونَ وَادِي الْقُرَى إِلَى الْمَدِينَةِ حِجَازٌ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الشَّامُ. «وَقَدْ بَقِيَتْ الْأَغْلَبِيَّةُ لِلْيَهُودِ فِي وَادِي الْقُرَى إِلَى الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ، وَكَذَلِكَ وَجَدَتْ طَوَائِفُ مِنْهُمْ فِي جِهَاتِ تِجَاءٍ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ لِلْمِيلَادِ، ثُمَّ انْعَدَمَ وَجُودُهُمْ فِي الْحِجَازِ وَأَطْرَافِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى اخْتَلَطُوا فِي بَقِيَةِ الْأَعْرَابِ وَانْدَجَّجُوا فِيهِمْ»^(١).

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب بتصرف، والبداية والنهاية لابن كثير.

أيقن العرب بعد هذه الغزوة أن لا حيلة لهم في مقاومة هذا الدين

وكما قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم، قضت على عنفوان قريش وكبريائها، ووقفتها أمام قوة الإسلام ذاهلة مغلولة اليدين، لا تدري ماذا تصنع حيال هذا السيل الجارف الذي لا تستطيع له صدًا، وهذا القضاء النازل الذي لا تملك له ردًا. وهكذا أيقنت قريش وأيقن العرب معها أن لا حيلة لهم في مقاومة هذا الدين، فاستسلموا لواقع الأمر، ولم يعد هناك من يفكر في مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شذمة قليلة من أعراب البوادي، جعلوا يتعرضون له كما يتعرض الغناء في طريق السيل، فيكتسحه السيل أمامه ثم يُلْقَى به على جوانبه. وكان لابد لهؤلاء أن تنالهم عصا التأديب؛ فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى هنا وهناك سراياه في فرق كفرق الشرطة، لتوطيد الأمن، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة، دون غدر أو خيانة.

مكاتبة الملوك

كانت دولتا الفرس والروم تتنازعان
سيادة العالم في ذلك الحين

شرع رسول الله ﷺ في أعقاب صلح الحديبية يكاتب الملوك
والأمراء من حوله، ليدعوهم إلى الإسلام. وكانت الدول
العظيمة البارزة في ذلك الحين هي الفرس والروم والحبشة،
وكانت الفرس دولة مجوسية تدين بعبادة النار، وكانت الروم
والحبشة نصرانيتين. وكان بين الفرس والروم تنافس شديد على
سيادة العالم حينذاك، وكان بينهما من أجل ذلك حروب طاحنة،
تَغلب فيها الفرس أحياناً وتغلب فيها الروم أحياناً، حتى انتهى
الأمر بينهما على الصلح، وأن تقف كل دولة عند حدودها. أما
ما عدا هذه الدول الثلاث فكانت دولا وإمارات صغيرة، بعضها
خاضع للفرس، وبعضها خاضع للروم، وبعضها مستقل بنفسه؛
فكانت اليمن والعراق تحت نفوذ الفرس، وكانت الشام ومصر
تحت نفوذ الروم، وكانت اليمامة وعمان والبحرين إمارات مستقلة.

أما تهامة والحجاز ونجد والطائف وما يحيط بها في قلب الجزيرة، فلم تكن تربطها بهاتين الدولتين سوى الصلة التجارية، ولكن العاطفة الدينية كانت تجعل هوى المشركين مع الفرس، وتجعل هوى المسلمين مع الروم، فكان المشركون والمسلمون جميعاً يتابعون أخبار القتال بين الفرس والروم باهتمام وشغف، وكل منهما يجرى على سجيته في الانتصار لحزبه، فالمشركون يحبون تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، والمسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. وقد حدث في عام ٦٢١ - وكان ذلك قبل الهجرة بعام واحد - أن غزا الفرس أرض الروم، فغلبوهم، واستولوا على الشام ومصر، وأمعنوا في آسيا الصغرى حتى هددوا «بِيزَنْطِيَّة» عاصمة الروم، ففرح المشركون وابتهجوا، وتفاءلوا بانتصار الوثنية على التوحيد، فأنزل الله تعالى صَدْرُ سورة الروم، يبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس بعد قليل، وذلك إذ يقول سبحانه: ﴿الْمَغْلُوبَةُ الرُّومُ﴾ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(١).

(١) سورة الروم الآيات ١ - ٦.

وقد تحقق وعد الله للمؤمنين، فغلب الروم فارس في عام ٦٢٦ من الميلاد، واستردوا كل ما أخذ الفرس منهم، ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله.

كان العالم كله كالقطيع الضال يسير في الظلمات

هكذا كانت الأوضاع السياسية للعالم الشرقى في ذلك الحين. أما الأوضاع الخلقية والاجتماعية فكانت أسوأ الأوضاع؛ وقد ذكرنا من قبل كيف كانت الأخلاق منحلة، والأوضاع الاجتماعية فاسدة؛ وكيف كان الظلم والإثم والفجور طابع المجتمع في كل أمة؛ وكيف سادت الفوضى في العقائد، وشاعت الوثنية في الأديان، وسيطرت الخرافات والأوهام على العقول؛ وكيف رُخصت النفوس وهانت الأعراض، وصار السلب والنهب والقتل والانتقام من مفاخر الأقوياء. ولم يكن العالم الغربى يقل في حاله فساداً عن العالم الشرقى، حتى بلغت البشرية الدرك الأسفل، وأصبحت كالقطيع الضال يسير في الظلمات.

كان لابد لهذا القطيع أن يسمع صوت الراعى ليهتدى إلى الطريق، وكان لابد له أن يستضيء بقبس من النور ليستطيع السير على هداه. وهكذا أخذ الراعى يهيب بالقطيع ليهتدى، ويرسل إليه النور ليستطيع السير. وكان ذلك الراعى هو

«محمد» خاتم النبيين ورسول الله إلى الناس كافة، وكان عليه وقد أسمع صوته إلى أمته من العرب أن يُسمع صوته إلى كل أم الأرض. «وكان من سنن الطبيعة أن يبدأ بمن حوله من الممالك، فقد كانت هذه البلاد تربطها بالعرب صلات، وكانت لها مدنيات جديرة بأن يهذبها الإسلام ويصلح ما فيها من فساد، حتى تكتمل حضارتها ويستقيم عِرجها»^(١).

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يكتب هذه الأمم في أشخاص ملوكها بدعوة الإسلام، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

النبي يبلغ رسالته إلى الأمم في أشخاص ملوكها ليرشدهم إلى الطريق

وحين عزم صلى الله عليه وسلم على ذلك الأمر، اتخذ لنفسه خاتماً من فضة نَقَشَ «محمد رسول الله»، وكتب لكل ملك كتاباً يدعوه فيه إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويذكره بأن السلامة والسعادة في الإيمان وحده، ويكلفه أن يبلغ هذه الدعوة إلى أمته، فإن تولى فعله إثم نفسه وإثم مَنْ وراءه من الناس؛ ثم يختم الكتاب بخاتمه ويبعث به رجلاً من أصحابه.. فبعث دحية بن خليفة إلى قيصر ملك الروم، وبعث

(١) لواء الإسلام (شعبان سنة ١٣٧٦): الشيخ محمد البنا.

عبد الله بن حُذافة إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط، وبعث شجاع بن وهب إلى الحارث الغساني ملك تخوم الشام. وكان هؤلاء الرسل الستة أول من بعث رسول الله من أصحابه إلى الملوك من حوله.

فأما النجاشي ملك الحبشة فأسلم، وأخذ كتاب رسول الله فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض وقال: «لو كنت أستطيع أن آتية لأتيته». ثم كتب إلى رسول الله بإسلامه وتصديقه.

وأما كسرى ملك فارس فأخذ الكتاب فزقه، وكتب إلى نائبه على اليمن - وكان يدعى باذان - أن يبعث إلى هذا الذي يدعى أنه نبي فيأتيه به. فبعث باذان رجلين من أجلد رجاله، ليأتياه برسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما قدما على رسول الله كره ما رآهما عليه من مظهر التخث والنعومة، فقال لهما: «من أمركما بهذا؟» قالوا: «رينا» - يقصدان كسرى - فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة» ويقول الرواة: إن هذه الليلة كانت ليلة الثلاثاء، لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - فرجعا إلى باذان فأخبراه بما سمعا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وما هو

إلا أن أثناه الخبر بقتل كسرى على يد ابنه شيرويه؛ فأسلم بأذان، وأسلم من معه باليمن من أبناء الفرس.

وأما المقوقس عظيم القبط فقرأ كتاب رسول الله وقال خيرًا، ثم احتفظ بالكتاب عنده في وعاء من عاج وختم عليه، وكتب، إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقى، وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها والسلام». ولم يزد المقوقس على هذا، فقبل رسول الله هديته، وتسرى إحدى الجاريتين - وهى مارية - فولدت له ولده إبراهيم.

قيصر يتحرى حقيقة النبي

وأما قيصر ملك الروم فأراد أن يستوثق من أمر هذا النبي ويعرف حقيقته فبعث إلى جماعة من تجار العرب الذين يأتون الشام فأحضرهم. وكان فيهم أبو سفيان بن حرب، ولم يكن قد أسلم بعد، فجعل يسأله عن رسول الله ﷺ ويتقصى أمره كله. فلما تبين له أنه رسول من الله رغب في الإسلام، وعرضه على من عنده من عظماء الروم فرأى منهم نفورًا شديدًا، فتظاهر بأنه

إنما كان يمتحن إيمانهم ومبلغ تمسكهم بدينهم. ولا بأس أن نورد هنا ما رواه البخارى من حديث قيصر وأبى سفيان، فإن فيه صورة واضحة من صور التحرى الدقيق، ومثلاً لمن شاء أن يقف على معالم الحق، ويتبين وجه الصواب فيما ينزل به من الأمور الجسام.

روى البخارى - بسنده إلى عبد الله بن عباس - «أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآءاً^(١) فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ (قال أبوسفيان): فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه منى، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبنى فكذبوه. (قال أبوسفيان): فلولوا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبته فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.. قلت: لا

(١) ماد فيها: جعل بينه وبينهم مدة يتهادنون فيها، وهي مدة صلح الحديبية.

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .. قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ .. قلت : بل ضعفاؤهم^(١) .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ .. قلت : بل يزدون .
قال : فهل يرتد أحد منه سُخْطَةً^(٢) لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ .. قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .. قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ .. قلت : لا ، ونحن منه في مدة^(٣) لا ندرى ما هو فاعل فيها . (قال) ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ .. قلت : نعم .
قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ .. قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ .. قلت : يقول : اعبدوا الله وحده

(١) الضعفاء هنا : الفقراء والعامه .

(٢) سُخْطه : كراهة له .

(٣) هي مدة صلح الحديبية .

ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم؛ وبأمرنا بالصلاة،
والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال لترجمانه : قل له :

سألتك عن نسبه، فذكرت أنه ذو نسب فيكم.. وكذلك
الرسل تُبعث في نسب قومها.

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن :
لا. فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل
يتأسى بقول قيل قبله.

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن :
لا.. قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب
ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
فذكرت أن : لا.. فقد أعرف أنه لم يكن ليذَر الكذب على
الناس ويكذب على الله.

وسألتك : أأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟.. فذكرت
أن ضعفاءهم اتبعوه.. وهم أتباع الرسل.

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون..
وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكرت أن لا.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب..

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن: لا.. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف.. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين.. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم^(١)؛ فلو أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه^(٢).. ولكن قيصر حين رأى نفور الروم خاف على ملكه أن يُفْلَت منه.

* * *

وأما الحارث الغساني فقرأ كتاب النبي ثم رمى به، وعزم أن يسير إليه ليقاتله، وكتب بذلك إلى قيصر؛ فكتب إليه قيصر ألا يفعل.

(١) يعنى بهذا أنه كان يعلم بما كان يقرأ في كتبهم أن نبياً سيظهر، ولكنه لم يكن يظن أنه من العرب.

(٢) يعبر بهذا عن شدة شوقه إلى لقاء الرسول ومبلغ استعداده لاتباعه، لولا ما يحيط به من الظروف.

وأما ملك اليمامة فظن أن الأمر مُلك لا نبوة، فطمع أن يكون له بعض هذا الملك، وكتب إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجله.. فاجعل لي بعض الأمر أتبعك". فلما قرأ النبي كتابه قال: «لو سألتني سَيَّابَةٌ^(١) من الأرض ما فعلت».

فهؤلاء الملوك الستة هم الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ سنة سبع.

وفي سنة ثمان بعث العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر ابن ساوى - ملك البحرين - فأسلم. وبعث عمرو بن العاص إلى ملكي عمان: فأسلما. وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث الحميري - ملك صنعاء - فأسلم. وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن. وكتب صلى الله عليه وسلم إلى جَبَلَةَ بن الأيهم - ملك غسان - يدعوه إلى الإسلام، فأسلم، ثم ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب.

(١) السيابة: البليحة.

كانت كتابة النبي إلى من حوله من الملوك دليلاً على ثقة النبي بظهور الحق على الباطل

ولعل مما يدعو إلى العجب أن يُقَدِّم رسول الله ﷺ على دعوة هؤلاء الملوك، والإسلام لم ترسخ أقدامه بعد في أرض الجزيرة، ولم تتوطد له دعائم القوة والسلطان، حتى يستطيع أن يناوئ من يناوئه من هؤلاء الملوك، ذوى الحول والطول والقوة والجبروت؛ ولكنه كان موقناً كل اليقين بأن الله مظهر دينه ومُعَلِّ كَلِمَتِهِ، ومنجز له ما وعده من النصر والفتح، وأن كل ما عليه - لكى ينجز الله له وعده - أن يبلغ دعوته إلى الناس كافة، وألا يألوا في ذلك جهداً ولا يدخر وسعاً: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

ومن أجل ذلك لم يتردد رسول الله ﷺ في أن يكتب بدعوته إلى ملوك العرب والعجم، على ما كان لهؤلاء وهؤلاء من سعة الملك وسطة السلطان؛ ولعله قد أحس من أصحابه تهيئاً لهذا العمل الجرىء، وترددًا في الإقدام على استفزاز هذه الدول الكثيرة بأموالها ورجالها وقوتها وعتادها، فخرج عليهم ذات يوم فقال لهم: «إن الله بعثنى رحمة للناس كافة، فأدُّوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى

ابن مريم». قالوا: "وكيف كان اختلافهم يا رسول الله؟" قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وثاقل». يقول مولاي محمد على: "كانت ثقة النبي وإيمانه بالنصر لا يترزعزع، وكان واثقاً وثوق اليقين من أن الإسلام سوف ينتشر ويسود، حتى يعم نوره كل فجاج العالم؛ فعلى الرغم من هذا الضعف البادى يدعو النبي ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه، وما كان ذلك إلا لثقتة وإيمانه بقوة ربه.. وهذا أجمل رد على أولئك النفر من المسلمين، الذين يتشككون في نجاح دعوة الإسلام في عالم الغرب، بحجة أن الإسلام مفترى اليوم إلى قوة دينية، وإلى إمبراطورية عظيمة تظاهرها؛ ولكن الحقيقة الناصعة ليست في حاجة إلى من يظاهرها.. إنها هي نفسها قوة هائلة لا سبيل إلى قهرها".

حقيقة ينبغي أن يتدبرها المسلمون الآن

وما أجدر المسلمين الآن بتدبر هذه الحقيقة! إن العالم في أيامنا هذه متعطش إلى الدين تعطش الظمآن إلى زلال الماء؛ فإن المادية التي طغت على العالم في أيامنا، لا تختلف في جوهرها عن المادية التي طغت على العالم أيام ظهور الإسلام.

وما أشبه الدول الكبرى في تضخمها الآن، بما كانت عليه الروم والفرس من التضخم أيام الرسول! وكما انهار ذلك البناء الضخم في لحظة الطرف أمام قوة الإسلام، فليس ببعيد أن يغزو الإسلام أوربا وأمريكا فتنهار أمامه قواها، كما انهارت أمامه من قبل قوى الفرس والروم. والدنيا دُول، والتاريخ يعيد نفسه، والزمن موجات من الروحانية والمادية، ومن الإيمان والإلحاد، يتلو بعضها بعضاً. ولعل هذه الیقظة التي أخذت تدب في العالم الإسلامي اليوم، بشير بأن موجة الإيمان قد أخذت في الظهور، وأن موجة المدنية المادية التي أغرقت العالم حيناً من الدهر، قد آذن عهدها بالزوال، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

عُمْرَةُ الْقَضَاءِ

استغرقت غزوة خيبر نحو شهر ونصف شهر، فقد ذهب النبي ﷺ إليها في أوائل المحرم من السنة السابعة، ورجع منها في أواخر صفر، فأقام بالمدينة شهرى ربيع وشهرى جمادى ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا. وقد مرت هذه الأشهر الثمانية هادئة لم تقع فيها حوادث ذات بال، إلا ما كان من مناوشات بعض قبائل الأعراب في البادية، مما كان يدعو رسول الله إلى بعث السرايا لتأديبهم، أو لقطع الطريق عليهم. ومع أن بعض هذه السرايا قتل فيها رجال من المسلمين، فإن الأمور في مجلتها ظلت تسير من حسن إلى أحسن، وظلت هيبة الإسلام تتوطد في النفوس، ودائرته تتسع في الأرجاء.

الرسول يحتاط لما عسى أن يكون من غدر قريش فلما أهل شهر ذى القعدة من هذه السنة، أعد رسول الله ﷺ عدته لعمرة القضاء، وهى العمرة التى اعترفت له بها

قريش في صلح الحديبية؛ فأمر أصحابه أن يتهبأوا لقضاء عمرتهم، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف من أهلها إلا من مات أو قتل في خير. وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمَرَاً ممن لم يشهد الحديبية، فكان المسلمون في هذه العمرة ألفين سوى النساء والصبيان. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق من الهدى ستين بَدَنَةً وأحرم من باب المسجد، ثم سار يلبي والمسلمون معه يلبون.

وكان الشرط ألا يحمل المسلمون معهم سوى السيوف في أغمادها؛ ولكن رسول الله ﷺ خشي غدره القوم، فحمل السلاح والبيض^(١) والدروع والرماح. وقاد معه مائة فرس؛ وجعل على السلاح بشير بن سعد، وعلى الخيل محمد بن مسلمة. فلما انتهى إلى ذى الحليفة^(٢) قدّم السلاح والخيل أمامه. ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى «مر الظهران»^(٣)، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل، فقال: هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصبح هذا المنزل غدًا

(١) البيض: جمع بيضة؛ وهي غطاء للرأس يصنع من حديد.

(٢) قرية بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال.

(٣) موضع على مرحلة من مكة، أي على مسيرة يوم بالراحنة.

إن شاء الله . ورأوا سلاحًا كثيرًا مع بشير بن سعد، فخرجوا
سراعًا حتى أتوا قريشًا، فأخبروهم بالذي رأوا من السلاح
والخيل؛ ففزعت قريش وقالوا: "والله ما أحدثنا حدثًا، وأنا
لعلى كتابنا وهدنتنا! فقيم يغزونا محمد في أصحابه"؟

قريش تفرع من حمل السلاح

وبعثت قريش مكرز بن حفص في نفر من قريش إلى رسول
الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: "يا محمد، ما عرفت صغيرًا
ولا كبيرًا بالغدر! تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم
ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القُرب"؟ فقال
رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إني لا أدخل عليهم
السلاح». فقال مكرز بن حفص: "هذا الذي تُعرَف به من
البر والوفاء". ثم رجع سريعًا بأصحابه إلى مكة فقال لهم: "إن
محمدًا على الشرط الذي شرط لكم". فلما سمعت قريش اطمأنوا
وأفسحوا له الطريق ليقضى عمرته.

قريش تنهات على رؤية الرسول

وأصحابه وهم يعتمرون

وتقول بعض الروايات: إن قريشًا خرجت إلى رءوس
الجبال وغلَّوا له مكة، وقالوا: لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه.

ويقول بعضها: إنهم جعلوا ينظرون إليه من رؤوس الجبال. ويقول بعضها: إنهم صفوا له عند دار الندوة ينظرون. ويقول بعضها: قعدوا له مما يلي الحجر: ويقول بعضها: إنما تغيب رجال من أشرف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله غيظًا وحسدًا. ومهما يكن من اختلاف الروايات فإنها مجمعة على أن أهل مكة كانوا يتشوقون لرؤية النبي وأصحابه وهم يدخلون مكة، فقد أشيع في قريش أن محمدًا وأصحابه نهكتهم حمى يثرب، حتى ما يتباعدون من العجف^(١)، فكان الناس مدفوعين إلى أن ينظروا إلى هؤلاء الضعاف العجاف ليشتمتوا بهم. وإذا كان بعض أشرف مكة قد دفعه الحقد إلى الخروج من مكة حتى لا ينظروا إليهم، فإين كثيرين من أهل مكة دفعهم حب الاستطلاع إلى أن ينظروا. فلما نظروا أغراهم النظر بالتأمل، وأسلمهم التأمل إلى العجب.

موكب الرسول يدخل مكة

والحق أنه كان منظرًا يدعو إلى التأمل والعجب معًا، فقد دخل النبي ﷺ مكة في موكب يبهر العيون ويسحر الأبواب، إذ هو على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون سيوفهم يحدقون به من كل جانب، ويسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء،

(١) ما يستطيعون النهوض لشدة ما بهم من الضعف والهراس.

وأصواتهم تَعَجُّ بالتلبية لله العلى الكبير: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ» !
وعبد الله بن رَوَاحَة أخذ زمام ناقته، صلى الله عليه وسلم، وقد
أخذته النَّشْوَة والحمية، فهو يرتجز بشعره بين يديه ويقول:

خلُّوا بني الكفار عن سبيله! فكل الخير في رسوله!
قد أنزل الرحمن في تنزيله بأن خير القتل في سبيله
يارب إن مؤمن بقليله^(١) أعرف حق الله في قبوله
اليوم نضربكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله^(٢) ويذهل الخليل عن خليله!

حتى إذا بلغ الحرم قال له رسول الله، صلى الله عليه
وسلم: «إيها يا ابن رَوَاحَة! قل: لا إله إلا الله وحده، صدق
وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»...
فجعل ابن رَوَاحَة يقولها، والناس من ورائه يرددونها في حماسة
وقوة، فيتجاوب بها الصدى في جنبات مكة، ويسمعها من
فارقوا مكة لكيلا يسمعوها، ولا يروا ركب النبي يخطو في
نواحيها.

(١) بقليله: بقوله.

(٢) يزيل الهام: يزيل الرءوس عن مواضعها.

النبي وأصحابه يظهرون قوتهم لأعدائهم

وكان رسول الله ﷺ يعلم ما أشاعوا عنه وعن أصحابه من الضعف والوهن، فأوصى أصحابه ألا يرى القوم فيهم غَمِيزَةً^(١)، وأمرهم أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا في الطواف، ليرى المشركون جلدَهم وقوتهم. ودخل صلى الله عليه وسلم المسجد مضطَبِعًا^(٢) بردائه، والمسلمون معه مضطبعون بأرديتهم، فسار حتى استلم الحجر الأسود بِمَحْجَنِهِ^(٣) وقال: «رحم الله أبرأ أراهم اليوم من نفسه قوة!» ثم انطلق يهرول حول البيت، وأصحابه يهرولون معه حتى انتهت الأشواط الثلاثة الأولى، ثم مشى بهم بقية الأشواط السبعة. وعجب المشركون لما رأوا من قوة المسلمين ونشاطهم، واستكفَّ الرجال والنساء والصبيان حول البيت ينظرون إليهم وهم يطوفون به، ويقول بعضهم لبعض: "أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى وهنتهم"^(٤)؟ إنهم لَيَنْفُيرون^(٥) كما تنفر الظباء".

(١) غَمِيزَة : شيئاً يدل على الضعف.

(٢) مضطَبِعًا : متلفعًا به بحيث يبق الكتف والذراع الأيمن عارِين.

(٣) المحجن : عصا صغيرة لعلها كالتى يمكنها طلبة اليريس الآن.

(٤) وهنتهم : أضعفتهم.

(٥) ينفرون : يقفزون فى مشيهم قفز الغزلان من النشاط والقوة.

فلما انتهى الطواف ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المسعى، فسعى على راحلته بين الصفا والمروة، حتى أتم السبعة الأشواط. فلما انتهى السعى عند المروة، وقف صلى الله عليه وسلم قال: «هذا المُنْحَرُ، وكل فِجَاج مكة منْحَرٌ»^(١) ثم نحر هُذْيَه عند المروة، وشَرِكَه في الهدى من شهد الحديبية من المسلمين، فمن وجد بَذَنَه من الإبل نحرها، ومن لم يجد نحر بقرة؛ وكانت الإبل قد عَزَّت يوم ذاك، فرخَّص لهم رسول الله في البقر. ثم حلق صلى الله عليه وسلم، وحلق أصحابه، وأحلُّوا بذلك من عمرتهم.

وكانت الخيل والسلاح قد تركت هناك في مكان قريب يسمى «يَأْجِج»^(٢) وخُلِفَ عندها مائتا رجل يحرسونها. فلما أتم المسلمون عمرتهم، بعث رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه إلى بطن يَأْجِج، ليقوموا على السلاح والخيل، ويرسلوا من خلفوا هناك من المسلمين، ليؤدوا مناسك العمرة.

بلال يؤذن فوق الكعبة

ثم إن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وظل بها حتى جاء وقت الظهر، فأمر بلالا فأذّن فوق ظهر الكعبة، فغاض ذلك المشركين

(١) المنحر: المكان الذي تذبح فيه الهدى.

(٢) يَأْجِج: على ثمانية أميال من مكة.

غِيظًا شَدِيدًا، حَتَّى غَطَى سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو وَرِجَالُ مَعَهُ وَجُوهَهُمْ حِينَ سَمِعُوا الْأَذَانَ، وَحَتَّى قَالَ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ: «لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبَا الْحَكَمِ، فَلَمْ يَسْمَعْ هَذَا الْعَبْدُ يَقُولُ مَا يَقُولُ»! وَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ أَبِي قَبْلَ أَنْ يَرَى هَذَا»! وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَاتَ أَبِي وَلَمْ يَشْهَدْ هَذَا الْيَوْمَ، حَتَّى يَقُومَ ابْنُ أُمِّ بِلَالٍ يَنْهَقُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ»! وَقِيلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: إِنَّهُمْ أَبَوْا ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي شَرْطِكَ.

مظهر المسلمين يهرق قريشاً فتخشى أن يفتنها عن دينها

ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثة الأيام التي كانت لهم بالشرط، وهم يغدون ويروحون في أرجاء مكة آمنين. وفي خلال هذه الأيام رأى أهل مكة من مظاهر القوة والتضامن بين المسلمين، ومن دلائل البر والمحبة والإخلاص بينهم وبين رسول الله، ما بهرهم وأدهشهم، وملأ قلوبهم إعجاباً بهذا الدين الذي جعل من الضعف قوة، ومن البغضاء محبة، ومن التنافر والتدابير ألفة واجتماعاً؛ وبهذا النبي الأُمي، الذي استطاع أن يجعل من هذه الأشتات وحدة متماسكة، قوامها التعاطف والتساند، وهدفها

الخير والإصلاح، وأساسها العبودية والإخلاص لله وحده
لا شريك له..

لقد خشي رجال مكة أن يفتنهم المسلمون عن دينهم،
فما كادت تنتهي الأيام الثلاثة حتى أتى سهيل بن عمرو وحُوَيْطِب
ابن عبد العزى يقولان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قد
انقضى أجلك فاخرج عنا». وأراد رسول الله ﷺ أن يتألف
قلوب القوم، وقد أحس ما فعل بها الإسلام، فقال لهما:
«وما عليكم لو تركتموني فأعرست»^(١) بين أظهركم، وصنعنا لكم
طعامًا فحضرتموه؟ فأدرك الرجلان ما هنالك من خطر عليهم
وعلى دينهم، إذا تحدث محمد إليهم وتحدثوا إليه منذ اليوم،
وأنتهم إذا اجتمعوا به في جو الوليمة الهادئ، وفي نشوة الأنس
بهذا الصَّهر الجديد، الذي يريد به أن يوطد الصلة ويُحكم
الوشائج فيما بينه وبينهم، فإنهم لا ريب مهزومون له؛ وإنه
ولا شك قادر على أن يملكهم بقوة نفسه وسحر بيانه، وأن
يصدع ما بينه وبينهم من تلك الحواجز التي صنعوها بأنفسهم،
ولا سيما بعد ما رأى الناس من آثاره وأيديه ما رأوا، وبعد أن
هَفَّت قلوب كثيرة إلى الإسلام، وأخذت قلوب أخرى ترقى ثم

(١) أعرس الرجل: إذا دخل بعروسه. وكان النبي قد خطب وهو في مكة ميمونة
بنت الحارث ولم يدخل بها بعد.

ترقّ حتى كادت تشفّ.

هكذا قدر الرجلان فقالا على الفور: «لا حاجة لنا في طعامك! اخرج عنا! نَشُدُّكَ الله والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت عن أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت»!.. وأثارت هذه الغلظة سعد بن عبادة سيد الأنصار، فقام غاضباً إلى سهيل بن عمرو يقول له: «كذبت، لا أمّ لك! ليست بأرضك ولا أرض أبيك! والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً».. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «يا سعد، لا تُؤذِ قوماً زارونا في رحالنا». فانحسم بذلك الموقف وأمر رسول الله بالرحيل عن مكة، فرحل الجميع إلى «سرف»، وهو موضع من ضواحي مكة قرب «التنعيم»، على نحو تسعة أميال من مكة.

وكان صلى الله عليه وسلم قد خطب إليه ميمونة بنت الحارث، وكانت من كرائم النساء في قريش، وكانت أختها - أم الفضل بنت الحارث - زوجة العباس بن عبدالمطلب؛ فتولى العباس زواجها للنبي، صلى الله عليه وسلم، فبَنَى^(١) بها في سرف.

(١) بنى بها: دخل بها.

كانت عمرة القضاء غزوة مباشرة لقلوب أهل مكة
وهكذا غادر رسول الله ﷺ مكة وقد ترك فيها أثراً عميقاً،
وغزا نفوس الضعفاء والأقوياء من أهلها على السواء، وتفتحت
لدينه قلوب عَصِيَّة لم تكن لتفتح له من قبل؛ «فريق منهم
بهرهم وفاء النبي بعهدده مع استطاعته نقضه، وفريق منهم راعهم
نُمت الدين ورحم الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم
وبين نبهم من طاعة وتمكين؛ وفريق منهم علموا أن العقاب
للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام. وحسبُك أن عمرة
القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة
المحمدية، ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في
رجاحة العقل مثلاًن متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان»^(١).

(١) عبقريه محمد.

خالد وعمرو

كان خالد وعمرو من أفذاذ الرجال في
قريش ومن أشدهم عداوة لرسول الله

لعل رسول الله ﷺ لم يفرح برجلين أسلما بعد الهجرة،
كما فرح بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص؛ فقد أسلم الرجلان
بعد عمرة القضاء، في صفر سنة ثمان، فكان فرح رسول الله
بإسلامهما، يكاد يعدل فرحه بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة
ابن عبد المطلب قبل الهجرة.

كان للرجلين في قريش شأن أى شأن، وكانا من الدعائم
القوية في بنيانها؛ فأما عمرو فكان من أفذاذ العرب في الدهاء
والسياسة، وحسن التأني للأمور؛ وأما خالد فكان من أفذاذ
العرب في أساليب القتال وفنون الحرب، وكانت إليه أعنة الخيل
في الجاهلية. فلما أسلما فت إسلامهما في عَضُد قريش، وأحدث
في بنيانها ثغرة هائلة، فأخذ يترجح للسقوط حتى سقط بعد ستة

أشهر. وبمقدار ما ترك إسلامهما في عزائم قريش من الوهن،
شد من عزائم المسلمين وقوى من دعائهم.

كان كلا الرجلين يفكر في هجر مكة

كان كلا الرجلين يحمل من الضغينة لرسول الله ﷺ ومن
التأبى عليه وعلى دينه، ما يحمله أشد أشراف قريش عداوة له
واستكباراً عليه؛ حتى إن خالداً لم يُطق البقاء في مكة ورسول
الله يعتمر عمرة القضاء، فخرج منها ممعناً في البعد، حتى
لا يرى ولا يسمع من أخباره شيئاً؛ وحتى أخذ منذ صلح
الحديبية يفكر في الأرض التي يأوى إليها، حين يتم الأمر لمحمد
بدخول مكة، وكان على يقين أنه لابد أن يتم الأمر له.. يقول
خالد: «.. فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعت قريش بالراح،
قلت في نفسي: أى شيء بقى؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟
فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده!! أفأخرج إلى هرقل،
فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقيم في عجم؟ أفأقيم
في دارى بمن بقى؟».. إنها الحيرة البالغة تملك على الرجل
مذاهبه فلا يدرى أين يذهب.

كذلك كان عمرو يفكر في الهجرة من الجزيرة كلها، كراهة
لرسول الله ﷺ وتأبياً عليه، وفراراً بنفسه وكرامته ودينه أن يقع
تحت سلطان محمد. يقول عمرو: «.. فلما حضرت الحديبية

وانصرف رسول الله في الصلح، جعلت أقول: يدخل محمد قابلاً^(١) مكة بأصحابه! ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شيء خير من الخروج!.. وأنا بعدُ ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم. فجمعت رجالاً من قومي كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومِدرُهنّا^(٢)، في يُمن نفس وبركة أمر! قلت: تعلمون أني - والله - لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً؛ فقد رأيت أن نلحق بالنجاشي؛ فإن ظهر محمد كنا عند النجاشي.. نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد! وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلا يأتيانا منهم إلا الخير. قالوا: هذا الرأي»..

هكذا كان الرجلان يفكران في الهجرة من أرض العرب، حين استبان لهما أن نجم محمد دائب في الصعود، وأن نجم قريش ممعن في الهبوط، وأن دين محمد ظاهر لا محالة على دين قريش. ولكن الله الذي بيده مفاتيح القلوب، هياً لكلية من الأسباب ما فتح به قلبه، وأسرع به إلى الإسلام من حيث لا يحتسب^(٣).

(١) قابلاً: في العام القابل.

(٢) المدره: التكلل والهامى عن القوم.

(٣) من حيث لا يحتسب: من حيث لا يدري ولا يقدر.

عمرو يتحول من نية الغدر إلى عزيمة الإسلام

فأما عمرو فقد هاجر إلى النجاشي في رفقته الذين رافقوه، فصادف قدومه قدوم عمرو بن أمية على النجاشي، حاملاً إليه كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فظن عمرو أنها فرصة يستطيع فيها أن يبطش برسول محمد، فيشفي بذلك غيظ قلبه، ويقدم إلى قريش يداً لن تساهي له أبداً الدهر..

يقول عمرو: «فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية! لو دخلت على النجاشي فأعطانيه فضربت عنقه، لرأت قريش أني أجزأت عنها بقتل رسول محمد!» فدخلت فسجدت له كما كنت أصنع؛ فقال: «مرحباً بصديق! أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قلت له: «نعم، أدماً كثيراً.. وقدمته إليه فأعجبه واشتراه. فلما رأيت طيب نفسه قلت: «أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول عدو لنا قد وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا؛ فأعطينه لأقتله». فغضب، ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره.. فابتدر منخراي^(١)؛ فجعلت أتلقي الدم بشيبي. فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها، فرقاً منه. ثم قلت: «أيها الملك، والله

(١) فابتدر منخراي: سالا دس.

لو ظننت أنك تكره هذا ما سألته». قال : «أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر^(١)، الذي كان يأتي موسى عليه السلام، لتقتله»؟

قال عمرو: فغير الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحقَّ والعربُ والعجم، وتخالف أنت؟ ثم قلت: «أتشهد أيها الملك بهذا»؟ قال: «نعم، أشهد به عند الله يا عمرو؛ فأطعني واتبعه، فوالله إنه لعلى الحق، وليظهرن على من يخالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده»! قلت: «أتبايعني له على الإسلام»؟ قال: «نعم»؛ فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم وكساني ثياباً، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، فصحبته حتى قدمنا المدينة...»

وخالد يعتزم الفرار من الإسلام فيتحول قلبه إلى الإسلام

وأما خالد فقد ظل في حيرته يفكر في الوجه الذي يتجه إليه، حتى دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، فتنغيب

(١) الناموس الأكبر: هو الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل.

عنها فلم يشهد دخوله.. يقول خالد: «وكان أخى الوليد دخل معه، فطلبنى فلم يجدنى فكتب إلى كتابًا فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك^(١)، ومثل الإسلام لا يجمله أحد. وقد سألتى رسول الله عنك، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال: ما مثله يجمل الإسلام. ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له، ولقدمناه على غيره! فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة». فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة..»

مصادفة سعيدة

«فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان ابن أمية، فقلت يا أبا وهب، أما ترى أن محمدًا ظهر على العرب والعجم؟ فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا! فأبى على أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيرى ما أتبعه أبدًا؛ فقلت: هذا رجل مuttur؛ قتل أبوه وأخوه بيدى. ولقيت عكرمة

(١) وأنت ذو العقل الراجح.

ابن أب جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان؛ قلت: فاطور ما ذكرت لك. قال: لا أذكره. ثم لقيت عثمان بن طلحة الحبشي^(١) قلت: هذا لي صديق، فاردت أن أذكره، ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة، فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد، فكرهت أن أذكر له. ثم ذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب عليه دُثُوب^(٢) من ماء لخرج. ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة.. وأدبنا بسخرة^(٣)، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بياضج، فغدونا حتى انتهينا إلى «الهدة»، فوجدنا عمرو بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم! قلنا: وبك! فقال: أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام. قال وذلك الذي أقدمني.. فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة».

الرسول يسر كثيراً بإسلام البطلين ويعرف لهما مكانهما فلما وصلوا المدينة أناخوا ركائبهم بظهر الحبرة، فأخبر بهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسر بهم وقال لأصحابه:

(١) نسبة إلى الحجابة وهي القيام على مفاتيح الكعبة، وهي إحدى وظائف الشرف في خدمة البيت.

(٢) الذنوب: الدلو.

(٣) أدبنا: خرجنا في ظلمة السحر، وهو آخر الليل.

«رَمْتُمْ مَكَّةَ بِأَفْلاذِ كِبْدِهَا»^(١) ! قال خالد : «فلبئنا من صالح ثيابنا، ثم عمدنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت أخى الوليد. فقال : أسرع، فإن رسول الله قد سر بقدمكم، وهو ينتظركم. فأسرعنا المشى فاطَّلعت عليه. فما زال صلى الله عليه وسلم، يتسم حتى وقفنا عليه؛ فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق. فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله ! قال : «الحمد لله الذى هداك ! قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير». قلت : يا رسول الله، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدا عليك ! فقال صلى الله عليه وسلم : «الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله». وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

يقول عمرو بن العاص : «فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى أمر حَزَبِهِ»^(٢) منذ أسلمنا. ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزل، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب.

لقد اكتسب الإسلام بإسلام خالد وعمرو قائدین عظیمین،

(١) أى بغير أبنائها.

(٢) حزبه : أهله.

وطولين كريمين، قاما بدور مهم في تاريخ الفتح الإسلامي، ولم
يزل رسول الله ﷺ يولى خالداً أعمته الخيل كما كان يتولاها في
الجاهلية، وقد سماه، صلى الله عليه وسلم: «سيف الإسلام»،
فكان سيفاً سله الله على الكفار ماضياً أبداً، وعزماته يوم مؤتة،
وفي قتال أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، أكثر من أن
تحصى، وكان له في جميعها البلاء الحسن والذكر الجميل.

سرية مؤتة

كانت غزوة مؤتة أثرًا من آثار
دعوة الملوك إلى الإسلام

كانت في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سبتمبر ٦٢٩م)، بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر. وقد سماها البخارى وابن إسحاق «غزوة مؤتة» لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، ومؤتة قرية من قرى البلقاء، في حدود الشام من ناحية الحجاز، على مرحلتين من بيت المقدس، شرق البحر الميت.

وكانت هذه السرية أثرًا من آثار الدعوة التي وجهها رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء، في أطراف الجزيرة العربية وفيما حولها؛ فقد ذهب الرسل الذين بعثهم رسول الله بكتبه إلى كل ملك وعظيم من هؤلاء، فمنهم من تلقى الدعوة بالقبول فأسلم؛ ومنهم من حالت ظروفه دون أن يستجيب لها، فلم يمنعه ذلك من أن يحسن لقاء الرسول ويكرم رفاذته؛ ومنهم من تلقاها

بغلظة وجفاء، ولكنه لم يهن الرسول ولم يمسه بأذى.. ذلك أن
العرف السياسى بين الدول يقضى بإكرام الرسل على كل حال؛
فإن الرسول ليس إلا مبلغاً عمن أرسله، فليس لأحد أن يسيء
إليه مهما تضمنت الرسالة التى يحملها.

كانت هذه - ولا تزال - هى القاعدة الأساسية فى العرف
الدولى، وعلى أساس هذه القاعدة بعث رسول الله ﷺ إلى
الملوك والعظماء من حوله، فكلهم أكرم الرسل ولم يهينهم؛ غير
أن شُرْحِبِيل بن عمرو الغسانى - أحد عمال الروم على الشام -
شذ عن الأصول فى هذه القاعدة، وكان شذوذه جافياً خشناً،
مهيئاً للكرامة جارحاً للشعور؛ فإنه لقي الحارث بن عمير
- رسول النبى إلى أمير بُصْرَى - فسأله عن وجهته، فلما عرف
أنه من رسل محمد أمر به فأوثق رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه.

كان قتل رسول النبى إلى أمير بصرى تحدياً صريحاً واعتداء مباشراً على الإسلام

فساء ذلك رسول الله ﷺ واشتد عليه، واعتبره تحدياً
صريحاً، وأمرًا لا يحسن السكوت عليه، لا سيما والإسلام
لا يزال يركز دعائمه فى أنحاء الجزيرة، ولا يزال فى أشد الحاجة
إلى الاحتفاظ بكل ماله من هبة. وكانت الفكرة التى رسخت

في نفوس الناس حينذاك أن الإسلام قوة لا تغلب، وأنه مؤيد بروح من الله عز وجل؛ وتحت تأثير هذه العقيدة أسلم كثير من الناس رَغْبًا أو رَهْبًا، ولا سيما الأعراب في البادية، فقد كان أكثرهم يسلمون تحت عامل الرعب من قوة الإسلام، أو تحت دافع الطمع في غناؤه. ولم يكن إذعانهم إذعان تصديق وإيمان بما في الإسلام من عقيدة صالحة وآداب كريمة؛ إنما كان إذعان المتريص الحريص، الذي يتحين الفرص ويستملى الظروف؛ وكانوا كما يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: آمَنَّا قَل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا: أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١)؛ وكما يقول سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفَرُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾^(٢).

فكان صلى الله عليه وسلم لذلك حريصًا على ألا تُنقص هيبة الإسلام في أية ناحية، وألا تتزعزع عقيدة الناس فيه على أى حال. وكان السكوت على قتل الحارث بن عمير أمرًا يحط من كرامة الإسلام وينتقص من هيئته؛ فكان لا بد من عمل يحفظ على الإسلام هيئته، ويُشعر الناس في داخل الجزيرة وخارجها أن الإسلام قوة لا يستهان بها؛ ومن أجل هذا قرر

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٨.

رسول الله ﷺ أن يبعث سريته هذه إلى الشام، حيث قتل الحارث بن عمير، لتأديب ذلك المعتدى، وغسل ما لحق بدولة الإسلام من مهانة في شخص سفيرها إلى أمير بصرى.

إعداد الجيش ورسم الخطة

ونذّب صلى الله عليه وسلم الناس فأسرعوا، وعسكروا «بالجرف» من أطراف المدينة حتى اكتملوا ثلاثة آلاف. فلما أعدم رسول الله وهياهم للقتال قال لهم: «أمير القوم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضي المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم». وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير فيدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن لم يستجيبوا استعانوا بالله عليهم وقتلوهم. وأوصاهم ألا يغدروا، ولا يقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعته؛ ولا يقربوا نخلاً، ولا يقطعوا شجراً، ولا يهدموا بناء.

الروم يستقبلون جيش المسلمين باستعداد هائل

وخرج الجيش مزوداً بوصايا رسول الله ﷺ مشيعاً بدعوات المسلمين؛ وخرج معه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى

إذا بلغ نَيْتَةُ الوداع ودعه ثم عاد إلى المدينة. وكانت الخطة التي سار على أساسها الجيش أن يفاجئ القوم ويأخذهم على غرة، ولكن القوم علموا بنبأ الجيش فأخذوا يستعدون له؛ وكان استعدادهم بالغاً غاية في عدد الرجال وآلات القتال، وفي كل ما يُبهر ويُرْوَع من مظاهر القوة والغنى، والأبهة والسلطان، حتى ذهل رجال من المسلمين من هول ما رأوا من كثرة الروم وأهبتهم وعظيم أهبتهم.

روى الواقدي - بسنده عن أبي هريرة - قال : شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع، والحرير والديباج؛ فَبَرِقَ بصرى^(١)، فقال لي ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعاً كثيرة.. قلت : نعم. قال : إنك لم تشهد بدرًا معنا، إنما لم نُنصر بالكثرة !

وتكاد تجمع الروايات على أن الروم استقبلوا المسلمين بمائتي ألف مقاتل، مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب التابعين لهم. ويذهب المؤرخون في تعليل اجتماع هذا العدد الكثير مذهبين : فريق يقول إن هذا العدد إنما أُعد إعدادًا، وأن شرحبيل بن عمرو قام بجمع العرب وتجهيزهم حتى اجتمع له

(١) بَرِقَ بصرى : تحير فذ بطرف.

أكثر من مائة ألف، وأن هرقل أمده من الروم بمائة ألف أخرى؛ وفريق يقول إن العدد الذى كان مع هرقل إنما جاء ليؤدى معه فريضة الحج إلى بيت المقدس، وللاحتفال باسترداد الصليب الأكبر بعد هزيمة الفرس. وسواء أكان هذا أم ذاك فإن لقاء المسلمين بمثل هذا العدد الضخم، يُشعر بأن القوم قد فزعوا حين علموا بأن المسلمين قد خرجوا لغزوهم في بلادهم، وأنهم أخذوا يتخيلون مدى هذه القوة الخارقة، التى أذاعت الرعب في أنحاء الجزيرة، والتى لم تستطع قوة الأحزاب مجتمعة أن تظهر عليها، ولم تستطع حصون اليهود - على قوتها - أن تثبت أمامها،. والتى اجتراً محمد صاحبها على أن يدعو هرقل في سلطانه وقوته إلى اتباعه. . نعم، فلا بد أنهم أخذوا يتصورون مدى هذه القوة ويتخيلونها شيئاً لا يطاق، فأخذوا يعدون لها كل ما يستطيعون من قوة؛ وإلا، فهل كان من الطبيعى أن يجتمع مائتا ألف لمقاتلة ثلاثة آلاف؟

ابن رواحة يشجع المؤمنين على لقاء الروم

ولم يكن المسلمون يقدرّون ما أعد القوم لهم. فلما وصلوا إلى «معان» - وهى حصن كبير من أرض فلسطين^(١) - علموا

(١) على خمسة أيام من دمشق بمشى الإبل.

بما أعدوا لهم من العَدَد والعتاد، فأقاموا هناك ليلتين يتشاورون في أمرهم؛ ثم بدا لهم أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوهم، فإذا أن يمدّهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمر فيمضوا له. ولكن عبد الله بن رواحة غلبت عليه حمية الإيمان، فقام يشجع القوم ويقول لهم: "يا قوم، إن التي تكرهونها هي الشهادة التي خرجتم تطلبونها.. والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به.. انطلقوا، فوالله لقد رأينا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد.. انطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعد الله خلف؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان"!!

وفعلت كلمات ابن رواحة في نفوس الناس ما يفعل السحر، فمضوا إلى لقاء العدو لا يباليون بشيء، وانطلقوا يسرون حتى وصلوا بعد ليلتين إلى تخوم البلقاء من أرض الشام، وهناك وجدوا جموع العدو محشودة في قرية يقال لها «مشارف». وأخذت فيألق العدو تدنو منهم، فالحازوا إلى قرية «مؤتة» ليتحصنوا بها؛ ولكن الروم انحدروا إليهم كائحدار السيل، وأقبلوا بخيلهم ورجلهم في مظهر يبهز الأبصار ويذهل العقول؛ فعبأ

المسلمون قوتهم وقاتلوا في نظام « ضغط الجموع بالقلب » - كما يقول الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم - وجعلوا في كل من الجنين قوة تحول دون إحداق العدو بهم، فكان في الميمنة قُطْبة بن قتادة، وفي الميسرة عبادة بن مالك. والتحم الجيشان في قتال قريب المدى عنيف الاشتباك.

كان القتال بالغاً غاية الشدة في هذه المعركة

وقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقاتل معه المسلمون على صفوفهم، حتى شاط^(١) في رملح القوم. فلما قتل زيد أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجعل يقاتل بها مستميتاً، حتى إذا ألحمه^(٢) القتال وأحاط به العدو، اقتحم عن فرسه فعقرها بسيفه، ثم اندفع يقاتل القوم راجلاً واللواء يمينه، فضربت يمينه فقطعت، فأخذ اللواء بيساره، فضربت يساره فقطعت، فاحتضن اللواء بعضديه حتى قتل، فوجد به نحو تسعين طعنة. فلما قتل جعفر أخذ اللواء عبد الله بن رواحة..

ويبدو أن القتال في هذه المعركة كان أعنف قتال قاتله

(١) حتى شاط: تفجر دمه وتغزرت أوصاله.

(٢) حتى ألحمه: زحمه واجهده.

المسلمون، حتى نسوا فيه أنفسهم، وشغلوا به عن طعامهم وشرابهم؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبد الله بن راحة لما نزل أياه ابن عم له بعرق^(١) من لحم، فقال له: "شُد بهذا صُلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت". فأخذه من يده فانتَهس منه نَهْسة^(٢)، ثم سمع الحطمة^(٣) في ناحية الناس، فقال: "وأنت في الدنيا"..؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

حيلة خالد في إنقاذ الجيش

واصطلح الناس على خالد بن الوليد بعد مقتل ابن راحة. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشي^(٤) بهم حتى أتى المساء، فانحاز بأصحابه وانحاز عنه المشركون. "وتحت ستار الليل بدّل خالد مواقف الجيش، فنقل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة في موضع المقدمة، وجعل المقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار،

(١) عرق من لحم: عظم فيه بعض اللحم.

(٢) انتَهس منه نَهْسة: أخذ منه قليلاً.

(٣) الحطمة: زحام الناس وحطم بعضهم بعضاً.

(٤) خاشي بتروي: تروى بالحاء وبالياء، والمقصود أنه داور العدو وحارزه بهم.

ويكثرُون الجلبة عند طلوع النهار^(١). فلما التقى الفريقان في الصباح، رأى كل فريق من العدو أمامه وجوهاً غير التي رآها بالأمس، ورايات غير التي رآها، فظنوا أن المسلمين قد جاء إليهم المدد، فتهبوا لقاءهم؛ وكان المسلمون قد أجهدوهم في قتال الأمس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

ونجحت حيلة خالد في خداع القوم، فجعل يداور بأصحابه، ويتراجع بهم في مهارة وحقق، حتى ظن الروم أنه يريد أن يستدرجهم إلى الصحراء، فلم يتبعوه. وما زال خالد يناوش جموع العدو حتى أفلت بجيشه، وانتهى به إلى هذه النهاية المأمونة، فصنع بذلك خير ما يصنعه القائد اللبق البصير. وخير ما يصنع في مثل ذلك الموقف هو الارتداد المأمون، "وهو أصعب من النصر في بعض المآزق؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له خبرة بالقيادة، تكافئ الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه"^(١) وما عهدنا ببعيد بموقعة «دُنْكَرْ»، حيث كان الإنجليز يفخرون بأنهم استطاعوا الارتداد أمام جيوش الألمان في الحرب العالمية الأخيرة، حتى كانوا يسمونه «بالهزيمة المنتصرة».

(١) عبقرية خالد.

الرسول ينعى أمراء الجيش ويثني على شجاعة خالد

وهكذا أنقذ خالد جيشه، وعاد به دون أن يفقد سوى اثني عشر رجلاً. وقبل أن يبارح الجيش أرض مؤتة، نعى رسول الله ﷺ إلى أصحابه في المدينة أمراءه الثلاثة، ودموعه تفيض حزناً عليهم.

روى البخارى - بسنده عن أنس بن مالك - أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتهم خبر، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تَذْرِفَانِ - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليه».

وكان وقع الخبر شديداً على نفوس المسلمين، حتى خرج أهل المدينة كباراً وصغاراً يستقبلون الجيش، وخرج الصبيان يشتدون حتى أشفق عليهم رسول الله ﷺ من طول ما جروا، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوهم ابن جعفر». فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه على دابته، حتى التقوا بالجيش عند «الجُرْف».

وظن الناس أن الجيش قد انهزم، فجعلوا يَحْثُون في وجوههم التراب ويقولون: "يا فُرَّار! أفرتم في سبيل الله"...؟

فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُّرَّار إن شاء الله تعالى».

موقف ابن رواحة

وتختلف الروايات في موقف ابن رواحة حين أخذ الراية بعد جعفر؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبدالله بن رواحة لما أخذ الراية تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتَكْرَهَنَّ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتَ مَطْمَئِنَّةً مَا لِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ؟

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتُ هَذَا جِهَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتُ
وَمَا تَمْنِيْتُ فَقَدْ أُعْطِيتُ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهَا هُدَيْتُ
ثم نزل، فقاتل حتى قتل..

ويقول الواقدي: إنه طاعن القوم ساعة ثم ولى، فلام نفسه، ثم نزل عن فرسه وقال لنفسه:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسِي لَتَنْزِلَنَّ إِنْ أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ
فَنَزَلَ فَطَاعَنَ الْقَوْمَ حَتَّى قَتَلَ. وَلَمْ يَذْكُرِ الْبِيهَقِ
ولا موسى بن عقبة - فيما نقل عنها ابن كثير - شيئاً عن هذا

التردد. كذلك لم يذكره المقرئ في «إمتاع الأسماع»،
ولا ابن سعد في «الطبقات الكبرى».

وعبد الله بن رواحة - فيما يقول ابن إسحاق وغيره - كان
هو الذي شجع المسلمين ودفعهم إلى الإقدام حين ترددوا في
قتال الروم، وهو الذي ذكر عنه ابن إسحاق - في سياق روايته
السابقة - أنه رمى قطعة اللحم من فمه حين رأى المعركة تدور،
واستكثر على نفسه أن يبقى لحظة في الدنيا وهو بعيد عن
المعركة.. أفلا يكون من التناقض أن يكون رجل هذه روحه
وهذا يقينه، يدخل المعركة وهو متردد خائف؟ ثم أفلا يكون
من التناقض أن يشجع الناس على ملاقات الروم، ثم يجبن هو
عن ملاقاتهم؟ فأين كان ابن رواحة منذ بدأت المعركة بين
المسلمين والروم؟ ألم يكن يقاتل فيها كجندى من جنود
المسلمين؟ فهل من الطبيعي أن يكون مقدماً شجاعاً وهو
جندى، ثم يكون متردداً خائفاً وهو قائد؟

يخيل إلى أن ابن إسحاق - رحمه الله - أخذ الرواية على
علائها فرواها دون أن يعيد فيها النظر؛ ولو أنه نظر فيها نظرة
لبان له أن فيها تناقضاً واضحاً بين أولها وآخرها، وأن مواقف
ابن رواحة قبل المعركة وفي خلالها يناقض بعضها بعضاً.

شعر ابن رواحة وما يحمله من معاني التشجيع للنفس
 كما يخيل إلى أن الشعر الذي نسب إلى ابن رواحة هو
 الذي أُملى على الرواة هذه الرواية. ولكن هذا الشعر - وإن
 كان في ظاهره يشعر بالتردد - هو في حقيقته محاورة بين الشاعر
 ونفسه، تحمل كل معاني التشجيع للنفس عند الإقدام على
 الموت، حتى تُقدّم وهي مطمئنة إلى أن الموت في هذا الموقف
 خير من الحياة؛ وإلا، فقد روى الواقدي عن رسول الله ﷺ أن
 زيدًا وجعفرًا عرض لكل منهما الشيطان حين أخذ الراية، فحبَّب
 إليه الحياة وكرَّه إليه الموت ومنه الدنيا، فسخر كلاهما من
 الشيطان، وقال له: "الآن حين استحکم الإيمان في قلوب
 المؤمنين تُمنّيني الدنيا؟" ثم مضى قُدماً حتى استشهد.. فإذا جاز
 لنا أن نأخذ بظاهر القول، جاز أن نقول بأن زيدًا وجعفرًا
 ترددا ثم أقدما، كما تردد ابن رواحة ثم أقدم.

أما ما رواه ابن إسحاق من أن رسول الله ﷺ قال - وهو
 على المنبر ينعى أمراءه إلى أصحابه - : «لقد رُفِعوا إلى في
 الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب، فرأيت في سرير
 عبد الله بن رواحة أزورارًا عن سريرتي صاحبيه، فقلت: عم
 هذا؟ فقيل لي: مضيا، وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد

ثم مضى.. فقد ضعفه ابن كثير وقال : إن ابن إسحاق ذكره منقطع السند. ثم عارضه بالحديث السابق الذى رواه البخارى بسنده عن أنس بن مالك.

على أن ابن إسحاق روى فى أخبار هذه الغزوة خبراً يدل على أن ابن رواحة خرج من المدينة، ومو لا يتمنى شيئاً كما يتمنى قتلة فى سبيل الله تدل على حسن بلائه، وصدق جهاده فى الله عز وجل؛ فقد ذكر ابن إسحاق أن الجيش حين تحرك للمسير، وقف المسلمون يودعونه ويقولون : ”صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين“! فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغٍ تَقْذِفُ الزَّيْدَا^(١)
أو طعنةً بيدي حَرَّانٍ مُجْهَزةً بحربة تَنْفُذُ الأحشاء والكبدَا^(٢)
حتى يقال إذا مروا على جَدَّتِي يَأْرُشِدُ الله من غازٍ وقد رَشَدَا^(٣)

فكيف يوصف رجل هذه روحه بالتردد، فى الوقت الذى تسنح الفرصة فيه لتحقيق أمنيته الغالية، وطلبته التى كان يرجوها ويدعو الله بها جاهداً؟..

أعتقد أن ابن رواحة قد ظلم بهذه الرواية ظلماً ينبغى أن

(١) الفرغ : السعة، والزبد : رغوۃ الدم.

(٢) الحران : العطشان، ولعله هنا بمعنى الظامئ إلى دم عدوه.

(٣) الحدث : القبر.

يزاح عنه، وأن يحتفظ له التاريخ بحقه كاملاً، كرجل جاهد في الله مخلصاً، وأقبل على الموت في سبيله مقدماً غير هيباب، مطمئناً غير جازع. وعند الله في ذاك الجزاء.

ماذا سجلت هذه الغزوة للمسلمين

وكما تختلف الروايات في تصوير موقف ابن رواحة، تختلف في تصوير موقف المسلمين بعد مقتل ابن رواحة، وفي النهاية التي انتهت إليها هذه الغزوة: أهى الهزيمة للمسلمين أم النصر لهم..؟

فيروى ابن سعد عن أبي عامر - وكان شهد المعركة - "أن المسلمين انهزموا بعد مقتل ابن رواحة أسوأ هزيمة، وتفرقوا حتى لم يُرِ اثنان جيعاً؛ ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار فركزه أمام الناس، وجعل يصيح بهم فيجتمعون، حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فدفعه إليه. فلما أخذه خالد حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا".

ويروى الواقدي عن العطف بن خالد: "أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقه وساقته مقدمة، وميمته ميسرة وميسرته ميمنة؛

فأنكر المشركون ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا :
قد جاءهم مدد؛ فزُعبوا وانكشفوا منهزمين؛ فقتلوا منهم مَقْتَلَةً لم
يقتلها قوم“.

ويقول موسى بن عقبة : ”اصطلح المسلمون بعد أمراء
رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومي، فهزم الله العدو
وأظهر المسلمين“.

ويقول ابن إسحاق : ”أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال :
يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. قالوا : أنت.
قال : ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما
أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى
انصرف بالناس“.

وقد نقل ابن كثير في البداية والنهاية سياق ابن إسحاق
والواقدي وموسى بن عقبة، ثم قال : ”ويمكن الجمع بين قول
ابن إسحاق وقول الباقيين؛ وهو أن خالدًا لما أخذ الراية حاشى
بالقوم المسلمين، حتى خلصهم من أيدي الكافرين الروم
والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة، ومقدمة
وساقة - كما ذكره الواقدي - توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء
إلى المسلمين فلما حمل عليهم خالد هزمهم بإذن الله“.
واستظهر ابن كثير على رأيه هذا بقول رسول الله ﷺ في

الحديث الذى رواه البخارى عن أنس بن مالك : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه ». كما استشهد بما ذكره الواقدي وموسى بن عقبة، وبما ذكره ابن إسحاق من أن قطبة بن قتادة - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن رافلة، وهو أمير عرب النصارى، فقتله وقال يفتخر بذلك :

طعنت ابن رافلة بن الأراش برمح مضى فيه ثم انحطمت
ضربت على جيده ضربة قال كما مال غصن السلم^(١)

إنما تقاس الهزيمة والنصر في المعارك بما تحققه الأمة من أغراضها

وسواء أكان الذى وقع هو ما رواه ابن إسحاق أم كان ما رواه غيره، فإنه لم يكن من الطبيعى أن يستطيع ثلاثة آلاف أن يهزموا مائتى ألف حتى يستأسروا لهم، أو أن يقتلوهم حتى يبيدوهم؛ ويكفى أنهم استطاعوا مع قلة عددهم أن يقفوا أمام هذا العدد الضخم يوماً أو أكثر من يوم، فى قتال طاحن عنيف، ثم يخرجون ولم يقتل منهم سوى اثنى عشر رجلاً. فلو

(١) السلا: شجر شائك من أشجار البادية.

أن المسلمين خرجوا من المعركة مع هذا ولم يقتلوا من العدو رجلاً واحداً، لكان هذا نصراً لهم أى نصر، فكيف وقد جاء فى بعض الروايات أنهم قتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم، وأن المشركين انهزموا أمامهم حتى كانوا يضعون السيوف فيهم حيث شاءوا؟

وقد يقال : إن فى هذا مبالغة، ولكن الصور التى قدمها المسلمون لقتالهم فى هذه الغزوة، تصدق هذا الزعم إلى حد كبير؛ فقد قتل الأمراء الثلاثة تباعاً فى أول يوم، وكان مقتضى هذا أن يفر المسلمون أو ينهزموا؛ إذ كانت العادة فى ذلك الزمان أن يفر الجيش إذا قتل أميره. ولعل هذا هو الذى جعل العدو يركز هجموه على الأمراء، ولكن المسلمين مع هذا لم يفروا، بل صمدوا وثبتوا لأعدائهم حتى أق الليل، فانحاز الفريقان كل إلى معسكره. وكان من الممكن أن ينتهز المسلمون هذه الفرصة فيفروا تحت ستار الليل، وهم آمنون أن يلحق العدو بهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل أصبحوا غادين إلى القتال فى هيئة أرهبت الروم وزلزلتهم، حتى فقدوا ثقتهم بأنفسهم، فتقاعسوا عن مهاجمتهم، واستبشروا بارتدادهم عنهم.. فهذه صورة من صور القتال الجماعى للمسلمين فى هذه المعركة.

أما صورة القتال الفردى لكل رجل منهم، فقد قدمها

جعفر بن أبى طالب حين نزل المعمة على فرسه يطاعن الأعداء، فلما ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها بسيفه، ثم قاتل راجلا واللواء يمينه، فلما قطعت يمينه أخذ اللواء بيساره، فلما قطعت يساره أخذ اللواء بعضديه حتى قتل. وقدمها كذلك خالد بن الوليد حين قال - فيما رواه البخارى عنه - : "لقد دُقُّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفحة يمانية". فكم يا ترى قتل خالد بهذه الأسياف؟ وكم يا ترى قتل غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن؟..

وقد نلمح صورة أخرى من صبور الإقدام والافتحام على الموت دون مبالاة، فى هذا العدد من الطعنات التى وجهت إلى جعفر، حتى قيل إنها تجاوزت التسعين طعنة.. إنها إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى استماتة المسلم فى سبيل الدفاع عن دينه، وعلى مدى إمعانه فى صفوف العدو، غير مكترث بما هو عليه من قوة وكثرة. كما أن هذا العدد من السيوف التى اندقت فى يد خالد، يدل على مدى العنف الذى كانت توجه به طعنات المسلمين إلى صدور المشركين؛ وإلا ففيم اندقت هذه السيوف التسعة؟..

وصورة أخرى من صبور القتال فى هذه الغزوة، نلمح فيها الروح التى أقبل بها المسلمون على المعركة، حين نستعيد كلام

ابن رواحة وهو يشجع أصحابه على ملاقاته الروم، وحين نستعيد كلام ثابت بن أرقم وهو يرد على أبي هريرة شجاعته، حين بهرته كثرة الروم وعظمة استعدادهم..

وصورة أخرى كذلك نلمس فيها روح المسلمين العامة، حين نستعرض منظر أهل المدينة وهم يستقبلون الجيش صغارًا وكبارًا، يحثون في وجهه التراب ويعيرونه بالفرار؛ فيصحح لهم الرسول هذه الفكرة الخاطئة، ويزن الأمور بميزانها الصحيح، ويقدرها قدرها الواجب، فيقول: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله».

ماذا تركت غزوة مؤتة في نفوس الروم

إن هذه الصورة وغيرها مما نستأنس به من شواهد المعركة، ترسم لنا الصورة العامة التي تركها المسلمون في أذهان أعدائهم يوم مؤتة. فمن الإسراف والمبالغة في التجنى إذن، أن نكلف المسلمين أن يفعلوا فوق ما فعلوا، حتى نقول بأنهم ظهروا على المشركين في هذه الغزوة. وإذا كانت الأمور بنتائجها والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهورًا على عدوهم أنهم تركوا في نفوسهم أثرًا من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، ويتكلمون عن متابعتهم؛ وأن هذا الأثر كان كافيًا لتأمين الحدود من ناحية

الشام، فلم يحاول الروم ولا أتباعهم من العرب أن يهاجموا المسلمين بعدها أبداً، وقد ظل هذا الأثر باقياً حتى يوم «تبوك»، حين ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام، فلم يستطيعوا مجابهة المسلمين يومئذ، وآثروا السلامة بأنفسهم على أن يلاقوا هذا العدو الكاسر، الذي باع نفسه في سبيل غايته، فلا يبالي الموت ولا يرهب النزال مهما بلغت قوة عدوه.

وكما أن هذه الصورة من البسالة تركت في نفوس الروم وأتباعهم هذا الأثر البعيد، فقد تركت في نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق أثراً قوياً من الإعجاب بالمسلمين، مما جعل كثيراً من بني سُلَيم وأشجع وغطفان وعَبَس ودُثَيان وفَزَارَة يدخلون في الإسلام طائعين.

فتح مكة

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية في جزيرة العرب كلها؛ وكانت الكعبة مجمع الأصنام وقبلة الأنظار، ومطمح آمال القبائل قريبا وبعيها؛ وكانت قريش حارسة الكعبة وسادنة البيت، واليها الرياسة والقيادة في أمور الدين؛ وكانت منزلة القبائل من قريش في هذه الناحية منزلة المسود من السيد، والتابع من المتبوع. ومن هنا كانت قبائل العرب على اختلافها تنظر إلى المعركة الدائرة بين محمد وقريش نظرة الجد والاهتمام، وتتابع حركاتها وخطواتها متابعة دقيقة، وكانت كل حركة من هذه الحركات، وكل خطوة من هذه الخطا تترك في اتجاهات القبائل أثرا بارزا، من حيث إقبالها على الإسلام أو إعراضها عنه، ومن حيث اجتماعها له أو اجتماعها عليه.

ومع أن الحوادث والمعارك التي وقعت في الجزيرة بين المسلمين وقريش، وبين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والروم،

وبين المسلمين وقبائل العرب في نواحي الجزيرة.. كانت ذات أثر في ظهور الإسلام وانتشاره في كثير من القبائل، فإن بقاء مكة على شركها - وهى أم القرى ومقل الوثنية - ظل سداً حائلاً دون خلوص الجزيرة العربية للإسلام وحده، وظلت قريش بحكم زعامتها الدينية هى العقبة الكئود فى طريقه. وكان لابد - لكى تخلص جزيرة العرب للإسلام، ولكى ترتضيه القبائل دينها وعقيدتها - أن تؤمن به قريش، وأن تحتضنه مكة أم القرى.

كان صلح الحديبية أول مفاتيح هذا المعقل العتيذ

وكان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش فى أواخر السنة السادسة أول مفاتيح هذا المعقل العتيذ؛ فقد اعترفت قريش فى ذلك الصلح بأن محمداً صاحب مذهب جديد، وأنه لا بأس من أن تقيم بينه وبينها عهداً يستقر به السلم فيما بينها وبينه، بعد ما عجزت تمام العجز عن القضاء عليه وعلى مذهبه..

لقد ظلت قريش دهرًا طويلا لا تعترف بمحمد، ولا بما ذهب إليه من هذا الدين الذى خالف به دينها وعقائدها، وخرج به على تقاليدها وتقاليد آبائها، وقلب به أوضاعها رأساً على عقب؛ وظلت فى كبريائها وتعاضمها تفتى عليه الأكاذيب،

وتصفه بما تشاء من الأوصاف التي تشوه سمعته ودعوته بين العرب. فلما عجزت بكل وسائلها أن تقضى عليه وعلى دعوته، اضطرت أن تنزله منها منزلة الند من الند، وأن تصالحه - ولو إلى حين - لتتق خطره وتأمين جانبه؛ فكان هذا الصلح أول مفتاح فك الله به أغلاق مكة.

وكانت عمرة القضاء هي مفتاحه الثاني

ثم كانت عمرة القضاء بعد ذلك بعام هي المفتاح الثاني من مفاتيح ذلك الحصن؛ فقد كان مظهر المسلمين في هذه العمرة، وهم في توأدهم وتراحهم، وفي ائتلافهم وتضامنهم، وفي حسن انقيادهم ودقة نظامهم، وفي صدق محبتهم وإخلاصهم لرسولهم، وفي عظيم حماسهم لدينهم وشدة تمسكهم بأدابه، وفي بالغ تقديسهم للبيت وتعظيم حرماته، وفي كل ما كانوا يؤدونه من شعائر هذه العمرة، وهم في هذه الحماسة، وهذه الألفة، وهذا النظام، وهذا الترفع عن كل ما يشين أخلاق الرجال.. كان مظهر المسلمين في كل هذا مظهرًا هز نفوس أهل مكة هزًا عنيفًا، ولمس مكان العقيدة من قلوبهم فزلزلها زلزالًا شديدًا؛ فأخذوا ينظرون إلى المسلمين نظرة الإعجاب والإكبار، وينظرون إلى الإسلام نظرة التفكير والتدبر؛ وجعلوا يقارنون بين هذا

الدين وما هم عليه من دين وعقيدة، ومن تقاليد لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق، ويوازنون بين هذه الشعائر التي يؤديها المسلمون في خشوع وانسجام، وبين ما يفعلون هم في عبادتهم من لغو ولهو، وما يقومون به عند البيت من مُكَّاء وتَصَدِيَّة...^(١)

نعم، أخذوا ينظرون ويتفكرون، فوجدوا فرقاً شاسعاً وتَوْناً بعيداً بين ما هم عليه وما عليه محمد ﷺ وأتباعه؛ فلانت قلوبهم للإسلام، وصَغَتْ إليه أفئدتهم، فأسلم منهم من استطاع أن يجهر بإسلامه، وأسر الإسلام من لم يستطع أن يجاهر به ويستعلن، وتبَّأ بقلبه ونفسه كثير منهم لأن يسلموا، لولا ظروف حائلة ومنافع عاجلة ظلت تمنعهم إلى حين؛ فكانت هذه الزلزلة التي أصيبت بها عقيدة أهل مكة في عمرة القضاء، مفتاحاً آخر فك الله به أغلاق مكة.

ثم نقضت قريش عهد الحديبية

ثم أراد الله بعد ذلك أن يفك كل ما بقى من أغلاق هذا الحصن، فكان ما كان في السنة الثامنة من نقض قريش لعهد الحديبية.. ذلك أنه كان بين قبيلتي بكر وخزاعة دماء وتيرات في

(١) المكاء: الصنبر الخفيف، والتصدية: التصفيق. ولعل هذا شبيه بما يفعله العامة الآن في أذكارتهم.

الجاهلية؛ فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بكر في عهد قريش، هدأت الحرب بين القبيلتين، وأمن كل فريق جانب عدوه. ثم حدث أن رجلا من قبيلة بكر وقف ذات يوم يهجو رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعي، فقام إليه الخزاعي فضربه، فحرك ذلك مابين القبيلتين من عداوة قديمة، وأخذت قبيلة بكر تعد عدتها للانتقام من خزاعة، وأعانهم على ذلك رجال من قريش.

وفي ذات ليلة كانت خزاعة على ماء لها يسمى «الوثير»، فباغتها رجال بكر ومن مالأهم من رجال قريش، فلجأت خزاعة إلى الحرم لتحتوى به، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، حتى قتلوا منها نحو عشرين رجلا؛ فاستنصرت خزاعة رسول الله ﷺ، وذهب رجال منهم إلى المدينة، فأخبروا رسول الله ﷺ بما كان من غدر بكر بهم، ومعاونة قريش عليهم، وكان مما قال زعيمهم عمرو بن سالم:

يارب إني ناشدُ محمداً حَلَفَ أَيْبُنَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا^(١)
 إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 هم يَتَّبِعُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّداً وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسَجَّداً^(٢)

(١) القديم العهد.

(٢) غدروا بنا ونحن عاكفون على صلاتنا في الليل.

فانصر-هـذاك الله-نصرًا أيّدا^(١) وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم». . . ووجد أن الفرصة بذلك قد تهيأت لفتح مكة، فأخذ يعد عدته لهذا الفتح.

أبو سفيان يحاول جهده أن يصلح ما أفسدته قريش

وقدر رسول الله ﷺ أن قريشًا ستدرك سوء ما صنعت، وأنها لا بد مرسلّة إليه لتصلح ما أفسد الغدر بينها وبينه، فقال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم، ليُشُدّ في العقد ويزيد في المدة». وكان ما قدر الرسول وما توقع، فقد أحسّت قريش بما وراء غدرها ذاك من سوء العاقبة، فأوفدت إلى المدينة زعيمها أبا سفيان بن حرب، لعله يستطيع أن يتلافى نتائج هذه الغلطة. وكان أبو سفيان يحس خطر الأمر الذي هو مقدم عليه، فلم يشأ أن يذهب تَوًّا إلى رسول الله ﷺ حتى يمهد الطريق للقائه؛ فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله، ليستشفع بها إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه أم حبيبة؛ فعجب

(١) نصرًا عزيزًا.

أبوسفیان لما رأى من فعل ابنته، وقال لها: "يابنية، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني" ! فجابهته ابنته في صراحة تقول: "بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، صلى الله عليه وسلم" ! فكانت صدمة شديدة الوقع على نفس أبي سفیان، لم يكن يتوقعها من أقرب الناس إليه؛ فلم يملك أن قال لابنته معبراً عما ناله من المهانة: "والله لقد أصابك بعدى يا بنية شر" !

ثم خرج مضطرب النفس مكلوم الفؤاد، حتى دخل على رسول الله ﷺ في المسجد، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، فكانت هذه صدمة أنكى من الأولى؛ فخرج من المسجد أشد ما يكون تضعفًا وانكسارًا، وذهب يستشفع بأصحاب رسول الله إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلم يجد منهم من يجب رجاءه.. ذهب إلى أبي بكر فاعتذر إليه في لطف، وذهب إلى عمر فأغلق له القول ورد عليه في جفاء يقول: "أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به" فذهب إلى علي بن أبي طالب فقال له: "يا علي، إنك أمس القوم ب رحماً، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت حائباً؛ فاشفع لى" ! فقال له علي: "ويحك يا أبا سفیان! والله

لقد عزم رسول الله، على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه" !
وقيل : إن أبا سفيان ذهب إلى عثمان بن عفان، وإلى سعد
ابن عباد، وإلى غيرهما من أكابر المهاجرين والأنصار، فكلهم
يقول له : "جوارى فى جوار رسول الله، صلى الله عليه وسلم،
وما يُجير أحد عليه". . فلما أيس منهم دخل على فاطمة
- وعندها الحسن ابنها غلام يدب بين يديها - فقال لها :
"يا بنت محمد، هل لك أن تُجبرى بين الناس؟" فقالت : "إنما
أنا امرأة" ! فقال لها : "مَرى بُنَّك هذا فيجير بين الناس،
فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر" ! فقالت : "والله ما بلغ
بُنَّى هذا أن يجير بين الناس، ما يجير أحد على رسول الله،
صلى الله عليه وسلم".

فرجع أبو سفيان إلى على فقال له : "يا أبا الحسن، إني
أرى الأمور قد اشتدت علىّ، فانصحنى". . فقال له على :
"والله ما أعلم شيئاً يُغنى عنك؛ ولكنك سيد بنى كنانة، فقم
فأجر بين الناس^(١) ثم الحق بأرضك". قال : "أو ترى ذلك
مُغْنِيًا عني شيئاً؟" قال : "لا والله ما أظنه، ولكنى لا أجد لك
غيره". . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : "أيها الناس؛ إني

(١) الإجارة بمعنى الحماية وأجار بين الناس : حال دون وقوع الشر بينهم، وكان من
عادة الزعماء فى العرب أن يفعلوا ذلك، فيستجيب الناس لهم ويجيزون قوهم.

قد أجرت بين الناس". .. ثم ركب بعيره وانطلق راجعاً إلى مكة، وهو يتجرع مرارة الخيبة والانكسار والهوان.

فلما قدم على قريش قالوا له: "ما وراءك؟" قال: "جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد على شيئاً! .. ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً! .. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو! .. ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدرى أيغني شيئاً أم لا". قالوا: "وما ذاك؟" قال: "أمرني أن أجير بين الناس.. ففعلت". قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: "لا"! قالوا: "وبلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك".

أخذ الرسول يتجهز لفتح مكة، وكان حريصاً على ألا يريق دمًا

وأخذ رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من الأعراب أن يحضروا رمضان بالمدينة؛ فأخذت القبائل تتوافد على المدينة وتعسكر بأرضها. وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على ألا يريق دمًا بمكة فأخفى مقصده على الناس، ووضع على أفواه الطرق والأنقاب^(١) حراساً يراقبونها،

(١) الأنقاب: جمع نقب، وهو فم الطريق ومدخل البلد.

فلا يدعون أحدًا يمر بهم ينكرونه إلا ردوه. فلما اجتمع الناس واحتشدوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار على قريش حتى يبعثها في بلادها.

غلطة حاطب بن أبي بلتعة

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى قريش وأعلم الناس بوجهته، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش، يخبرهم بما عزم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ واستأجر امرأة من مُزَيْنَةَ فأعطاه الكتاب، وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى تبلغه قريشًا؛ فأخذت المرأة الكتاب فأخفته، وسلكت طريقها على غير نَقَبٍ حتى خرجت من المدينة، ثم استقامت على الطريق إلى مكة. وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب، فأرسل على بن أبي طالب والزيبر بن العوام في أثر المرأة، فأدركاها في الطريق، واستخرجا منها الكتاب فأحضراه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فدعا رسول الله حاطبًا فأطلعه على الكتاب، ثم قال له: «ما حملك على هذا؟» فظن حاطب أنه هالك لا محالة، وأنه لا نجاة له - إن كانت له نجاة - إلا بأن يصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال: «يا رسول الله لا تعجل علي؛ فوالله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت

ولا بدلت؛ ولكنى كنت امراً ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه^(١)، وكان من معك من المهاجرين - ممن له أهل أو مال بمكة - لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت - إذ فاتنى النسب فى قريش - أن أأخذ عندهم يداً^(٢) يحمون بها قرابتي؛ ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإيمان..!"

الرسول يقيل عثرة حاطب

ورأى رسول الله ﷺ صدق لهجة حاطب، وحسن نيته فيما أقدم عليه من ذلك الذنب، فقال لمن حوله: «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به». ونظر صلى الله عليه وسلم إلى ماضى الرجل فى الجهاد، وحسن بلائه فى الذود عن حرمت الإسلام، فرغب فى العفو عنه. أما عمر فقد كبر عليه أمر هذه الخيانة، وأن يكون مرتكبها واحداً من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى حاطب يقول: "قاتلك الله! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش؟.. يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق".!.. فتبسم رسول الله من حماسة عمر

(١) المصانعة: المجاملة والسبق بالمعروف.

(٢) اليد: الكرامة والجميل.

وقال: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»! فدمعت عينا عمر وقال: «الله ورسوله أعلم»..!

وفي هذه الحادثة أنزل الله تعالى صدر سورة الممتحنة، يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم، أو يطلعوه على بعض أسرارهم، مهما يكن السبب الذي يدفع إلى ذلك، فإن العدو عدو حيثما كان، وموادة العدو خيانة ليس بعدها خيانة.. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ وَأَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

(١) سورة الممتحنة الآيات ١ - ٣.

جيش الفتح

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفاري، وخرج منها في نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومن وفد على المدينة من قبائل العرب. وسار هذا الجيش العريض يقطع الصحراء الواسعة سعيًا إلى مكة، لا ليسفك الدماء ويقتل الأبرياء، ولا ليسلب الأموال ويغتال الحقوق، ولكن ليفتح أغلاق البلد الحرام، ويرفع دونه الحواجز والسدود، ويجعله - كما جعله الله - مثابة للناس وأمنًا، وينشر فيه دين الحق الذي بعث به رسله، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

العباس يعمل على تأمين قريش

فلما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق، لقيه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله إلى المدينة، فكانت هذه اللقيا مصادفة مباركة، حَقَّنَ الله بها الدماء وسر الأمور، وذلل بها طريق الفتح على ما كان يرجو رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد بعث العباسُ بأهله إلى المدينة، ورجع مع جيش رسول الله إلى مكة؛ فلما صار الجيش على نحو مرحلة منها نزل رسول الله ونزل أصحابه؛ وكان الوقت عَشِيًّا، فأمر رسول الله

ﷺ بأن يوقدوا النيران جميعاً حيث نزلوا، فأوقدوا عشرة آلاف نار، فظهر ضوءها يسطع في ظلام الصحراء، ويتلألأ في فضاءها الواسع، حتى جعل ليلها نهاراً؛ فراع ذلك العباس، وخشى على أهل مكة نتائج هذه المفاجأة الخطيرة، وقدّر ما عسى أن يكون من مقاومة قريش لهذا الجيش اللّجب، وما عسى أن يكون لذلك من خسارة في الأنفس والأموال، فجعل يفكر في طريقة يستطيع بها أن يؤمّن قريشاً، وينقذهم من هذا الهلاك الذي يوشك أن يحل بهم.

يقول العباس: «لما نزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "مَرَّ الظَّهْرَانِ"، رَقَّتْ نَفْسِي لِأَهْلِ مَكَّةَ وَقُلْتُ: وَاصْبِرْ قَرِيشُ! وَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ عَنُوءٌ قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ، إِنَّهُ لَهْلَاكُ قَرِيشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ! (قال): فجلست على بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرجت عليها حتى جئت الأراك^(١)، فقلت: لعلّي أجِدُ بعضَ الحطّابةِ أو صاحبَ لبنٍ أو ذا حاجةٍ يأتى مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكان من قضاء الله وقدره أن خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم

(١) الأراك: واد قرب مكة يكثر فيه شجر الأراك، وهو الشجر الذي يؤخذ منه

السواك.

ابن حزام ويُذيل بن وَرْقَاءَ يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به؛ فوالله إني لأسير على بغلة رسول الله ألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان ويدل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: "ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً"! فيقول له بدليل: "هذه - والله - خزاعة قد حششتها" الحرب". فيقول أبو سفيان: "خزاعة أذل وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها".

(قال العباس): فعرفت صوته، فقلت: "يا أبا حنظلة"! فعرف صوتي، فقال: "أبو الفضل"? قلت: "نعم". قال: "ما لك، فذاك أبي وأمي"! قلت: "ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الناس.. واصبلح قريش والله"! قال: "فما الحيلة، فذاك أبي وأمي"? قلت: "والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك! فاركب في عَجْزِ هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك".

(قال): فركب خلفي ورجع أصحابه، فجئست به: كلما مررت على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته..

(١) حششتها (بالشين): أي أحرقتها، وحششتها (بالسين) أي اشتدت عليها.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: "من هذا؟" وقام إلى. فلما رأى أبا سفيان على عَجْز الدابة قال: "أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد!" ثم خرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وركضت البغلة فسبقتة، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله، ودخل عمر في أثرى فقال: "يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى فلاضربن عنقه!" قلت: "يا رسول الله، إني قد أجرتة". ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه، وقلت: والله لا ينجيه الليلة دونى رجل..

وما زال العباس وعمر عند رسول الله ﷺ يتراجعان في شأن أبي سفيان، حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به».

أبو سفيان يعتنق الإسلام

(قال العباس): فذهبت به إلى رحلى فبات عندى. فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: "بأى أنت وأمى، ما أحلّمك وأكرمك وأوصلك!

والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد". قال : «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟» قال : "بأي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه فوالله إن في النفس منها حتى الآن شيئاً" . . فقال له العباس : "ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك" ! (قال) : فشهد شهادة الحق . فقلت : "يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً" . قال : «نعم . . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «يا عباس، احتسبه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل^(١)، حتى تمر به جنود الله فيراها» . . (قال) : فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه . ومرت القبائل على راياتها، فما تمر قبيلة إلا سألتني عنها، حتى مر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، رضى الله عنهم، لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد. فقال : "سبحان

(١) الخطم : منقار الطائر، ومقدم أنف الدابة وفها، وهو هنا بمعنى مقطع الجبل بدءاً أو نهاية.

الله يا عباس! من هؤلاء؟ قلت: "هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار". فقال: "ما لأحد بهؤلاء قَبْلُ ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!" قلت: "ويحك! إنها النبوة". قال: "فنعنم إذن^(١)"! قلت: "النَّجاء إلى قومك"...

أبو سفيان ينذر قريشاً ويدعوها إلى التسليم دون مقاومة

فسار... حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن!" فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بلحيته وقالت: "اقتلوا هذا الشيخ الأحمق... قُبِّح من طليعة قوم". قال: "ويلكم! لا تَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن!" قالوا: "قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟" قال: "ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!"

(١) هذه العبارة فيها روح التهمك والاستنكار، بقروها غير المصدق كما بقروها المغلوب على أمره حين لا يجد له بثاً من التصديق؛ لعلها تقابل في لغتنا العامية «أيوه صحيح... بق كده!!».

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد».

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طُوًى وصار على أبواب مكة، فرَّق الجيش على مداخلها، وأطبق عليها من جميع نواحيها؛ فأمر الزبير بن العوام أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر سعد بن عبادَةَ أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بفريقه من ناحية، وقَدَّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ودخل صلى الله عليه وسلم من ناحية «أذاخِر»، حتى نزل بأعلى مكة، وضُرِبَ له هناك قبة.

كان الرسول حريصاً على ألا يراق دم بمكة

وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً أشد الحرص على ألا يراق دم بمكة، فنهى عن القتال. وبلغ من حرصه على صون الدماء أن خلع سعد بن عبادَةَ من الإمارة، وأسلمها إلى ابنه قيس بن سعد، حين بلغه أن سعدًا قال يتوعد قريشًا وهو يتوجه لدخول مكة: "اليوم يوم الملحمة! اليوم تُسْتَحْلُ الحُرمة". ولكن أراد الله، جلت حكمته، أن تسفك في ذلك الفتح الأبيض بضع قطرات من الدم؛ فقد وجد خالد بن الوليد من ناحيته مقاومة من بعض رجال مكة، فاضطر إلى مقابلة القوة بالقوة، فقتل في أثناء ذلك رجلان من المسلمين،

وبضعة وعشرون رجلاً من رجال قريش. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك غضب وقال: «ألم أنه عن القتال؟» ف قيل له: يا رسول الله، إن خالداً قوتل فقاتل. فقال: «قضاء الله خير!»

الرسول يدخل مكة في تواضع وخشوع

وهكذا دخلت جيوش المسلمين مكة بلا مقاومة، وتم فتح البلد الأمين بلا كبير قتال، ودخل صلى الله عليه وسلم على ناقته، لا كما يدخل الفاتحون في كبريائهم وجبروتهم، بل دخل خاشعاً متواضعاً مكباً على رحل ناقته، يكاد رأسه يلمس واسطة الرحل، شكراً لله على ما أنعم به من هذا الفتح المبين، وما من به من هذا الفضل الكبير.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الفتح، حتى انتهى إلى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم الركن بمَحْجَنِهِ^(١) وكبر، فكبر المسلمون بتكبيره، حتى ارتجت لتكبيرهم أرجاء مكة، وحتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا. ثم طاف بالبيت سعياً على ناقته، وهو في كل طَوَافٍ يستلم الحجر الأسود بمحجته حتى أتم طوافه.

(١) المحجن: عصا قصيرة، لعلها تشبه العصا التي يسكها طلبة البوليس والحربية في أيديهم الآن.

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من طوافه نزل عن راحلته، ثم انتهى إلى المقام فصلى فيه ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فشرب منها وتوضأ؛ والمسلمون حوله يَتَدَرُونَ وَضُوءَهُ^(١) يصبونه على وجوههم، والمشركون ينظرون ويعجبون لما يرون من هذا ويقولون: "ما رأينا مُلْكًا أبلغ من هذا ولا سمعنا به"!!..

الرسول يعفو عن أعدائه عفوًا لامثيل له في تاريخ البشرية

ثم جلس صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد، وأبو بكر قائم على رأسه بالسيف، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له الكعبة، فدخلها فصلى بها ركعتين، ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"!!.. ثم خطب خطبة طويلة، ذكر فيها جملة من الأحكام، ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء.. الناس من آدم، وآدم من تراب». ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

(١) الرضوء - بفتح الواو -: الماء الذي يُتَوَضَّأُ بِهِ.

أكرمكم عند الله أتقاكم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(١). ثم قال :
« يا معشر قريش، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ »
قالوا : « خيرًا .. أخ كريم وابن أخ كريم » ! قال : « أقول كما
قال أخى يوسف : لا تَتْرَبَ عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو
أرحمُ الراحمين .. ! اذهبوا فأنتم الطلقاء » .. !

* * *

تُرى أكان أهل مكة يرجون مثل هذا العفو، لو أن فاتح
مكة كان قائدًا من القواد أو ملكًا من الملوك ؟ .. أعتقد أننا
لو تصفحنا التاريخ من أوله إلى آخره، لما وجدنا رجلًا واحدًا
وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم .. نعم، ليس فى التاريخ
كله موقف بلغ من الساحة ما بلغه هذا الموقف، ولا صورة
بلغت من السمو ما بلغت هذه الصورة، لأنه ليس فى الناس
كلهم بشر بلغ من الكمال الإنسانى ما بلغه محمد رسول الله !

ليس عجبًا إذن أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف
الفريد فى التاريخ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم ملكًا
ولا قائدًا، ولم يكن يرمى إلى ما يرمى إليه الملوك والقواد من
إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهدى؛ إنما كان رحمة من الله

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

أرسلها إلى عباده، فهو حينئذ حل حلت الرحمة في أثره، فشملت الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، فأخذ كل بحظه منها، كما تأخذ بقاع الأرض على اختلافها من بركات الغيث، فيثمر خصبها، أو يُلطف جَوُّها، أو تلين قسوتها.

فتح هذا العفو قلوب أهل مكة

للإسلام وملأها بحبة الرسول

لقد نزل هذا العفو الكريم بردًا وسلامًا على تلك القلوب القاسية، التي طالما اضطربت بالعداوة لهذه النفس الخيرة، وطالما أعمىها الحقد عن مجاورة هذا القلب الرحيم؛ فقد ظل صلى الله عليه وسلم نيقًا وعشرين عامًا ينشد الخير لهؤلاء الناس، ويحاول بكل وسيلة أن يوجههم إليه ويرغبهم فيه؛ ولكنهم عموا وصموا، ﴿وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرُ ومن بيننا وبينك حجاب﴾، وبادلوه عداوة بمودة، وإساءة بإحسان، وكذبوه وقاطعوه وأخرجوه، وجاريوه وألبوا عليه، وظلوا دهرهم يترصبون به الدوائر، ويتحينون فيه الفرص. فلما أظهره الله عليهم، وأمكنه من رقابهم، نسي كل ما سلف من مساءاتهم وعداوتهم، وكافأهم بالصفح الجميل والعفو الشامل.. فأية نفس عظيمة هذه النفس! إنها نفس الرسول الكريم، الذي لم يكن يضمّر قط إلا الخير، ولم يكن يبغى إلا الصلاح، والذي

لم يكن قط جباراً ولا ظالماً ولا منتقماً لنفسه، ولم يكن في غضبه ورضاه إلا كما يقول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

لقد كان هذا العفو فتحة أخرى، فتح الله به أغلاق هذه القلوب المنكبة، وطوى به عنان هذه النفوس المستكبرة، ففدت تفيض بالحب والإخلاص، وتدين بالطاعة والولاء، وتتضوى تحت لواء الرسول طائفة مستسلمة، وتدخل في دينه راضية مطمئنة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٢).

وهكذا فتحت مكة أبوابها لدعوة الإسلام، وألقت مقاليدها إلى رسولها الأمين، فانهدم بذلك حصن الشرك العتيد، وانهار ذلك السد المنيع الذي قام حيال الدعوة منذ قامت.. ومنذ ذلك اليوم صارت مكة كعبة الإسلام، وبقية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وسبتظل كذلك إن شاء الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(٢) سورة فصلت آيتا ٣٤، ٣٥.

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

غزوة حُنين

أهل مكة يبايعون الرسول على الإسلام طوعاً لا كرهاً
دخل رسول الله ﷺ مكة في اليوم العشرين من رمضان،
سنة ثمان من الهجرة (يناير سنة ٦٣٠)، وظل بها قرابة عشرين
يوماً يرتب شئونها، ويصلح أحوالها، ويخرج بها من جو الشرك
والوثنية إلى جو الإسلام والتوحيد؛ فأمر بلالاً أن يؤذن فوق
الكعبة، فصعد بلال على ظهرها وأخذ يدوي بصوته في
الأرجاء: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن
لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً
رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حيّ على الصلاة، حيّ
على الصلاة. حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح. الله أكبر الله
أكبر. لا إله إلا الله... ثم أقيمت الصلاة، فقام رسول الله
ﷺ يصلي بالناس في حرم البيت، وقام الناس معه على
صفوفهم، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، ويقومون كلما قام
ويجلسون كلما جلس.

وكان لهذا المنظر الجليل أثره الفعال في نفوس المشركين من أهل مكة، فأقبلوا على الإسلام طائعين، واجتمعوا على رسول الله ﷺ يبايعونه على الإسلام؛ فجلس لهم رسول الله على الصفا، وقام دون مجلسه عمر بن الخطاب يأخذ له البيعة على الناس، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. فلما فرغ من بيعة الرجال جاء النساء يبايعنه على ألا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يَزْنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه في معروف.. فبايعهن واستغفرهن الله. ودخلت بذلك مكة في حظيرة الإسلام، وعمت الناس روح جديدة من الحرية والإخاء والمساواة.

وكان مما دفع بأهل مكة إلى الإسلام أن رسول الله ﷺ لم يرغب أحداً منهم على اعتناقه، على رغم ما كان له من القوة والسلطان بعد ظهوره وانتصاره؛ بل تركهم أحراراً في اختيار دينهم، فمن شاء أن يسلم أسلم، ومن شاء أن يبقى على دينه بقى عليه؛ حتى إن صفوان بن أمية لما أتى ليسلم قال لرسول الله ﷺ: "أهلنى بالخيار شهرين"؛ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنت بالخيار أربعة أشهر»؛ مع أن صفوان كان من الذين أهدر رسول الله دماءهم يوم الفتح، لما كان من شدة

عداوته وأذيته للمسلمين. وكان عفو رسول الله ﷺ عن أهـدر دمـاءهم يوم الفتح - بعد عفوـه الشامل عن أهل مكة - من دوافع الإقبال على اعتناق الإسلام في مكة، فلم يمض إلا قليل حتى أسلم أهلها جميعاً، ورضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً.

وكان هؤلاء النفر الذين أهدر رسول الله ﷺ دمـاءهم نحو خمسة عشر، ما بين رجل وامرأة، منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، ووحشى بن حرب قاتل حمزة، وهند بنت عتبة آكلة كبده. وكانوا بين عدو بالغ في عداوته للإسلام وفي أذيته للمسلمين، وبين مجرم فر يجرمته من القصاص وارتد بعد إسلامه إلى الكفر. وقد عفا رسول الله ﷺ عن أكثرهم، فلم يقتل منهم إلا ثلاثة رجال وامرأة. وقد ترك هذا العفو أثره في نفوس هؤلاء النفر فأسلموا راغبين؛ وكان منهم من أبلى في الدفاع عن الإسلام أحسن البلاء، وجاهد بنفسه وماله في الله حق جهاده.

الرسول يحو كل أثر من آثار الشرك في مكة وفيما حولها

وأخذ صلى الله عليه وسلم يحو بمكة كل أثر من آثار
الشرك والوثنية، فأمر بهدم ما كان حول الكعبة من الأصنام؛

وكان حول الكعبة - فيما يقول الرواة - ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم؛ فهُدمت الأصنام كلها، وعُحيت صور الوثنية ورسومها من الكعبة، وَخَلَصَتْ قِبْلَةُ الْإِسْلَام لِلإِسْلَام وحده.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الكعبة، وطهرها من كل ما كان يندسها من آثار العبودية لغير الله عز وجل، أمر منادياً ينادى في أهل مكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره». ولم يكن بمكة بيت إلا فيه صنم يتبرك به أهله، ويمسحونه^(١) عند دخولهم وخروجهم؛ فأقبل أهل مكة على أصنامهم يكسرونها، وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنماً لها بالقُدُوم حتى حطمته، وهى تقول: «كنا منك في غرور»!

ثم بعث رسول الله ﷺ سراياه في قبائل العرب حول مكة، ليهدموا ما بها من الأصنام؛ فبعث خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً إلى بطن نخلة، ليهدم بيت «العُزَّى» - وكانت أكبر أصنام قريش - فهدمها؛ وبعث عمرو بن العاص في جماعة من المسلمين إلى هذيل، لهدم صنمها «سَوَاع»، فهدمه؛ وبعث سعد ابن زيد في عشرين فارساً إلى المشلل عند ساحل البحر، ليهدم

(١) ويمسحونه: كما يفعل العامة الآن عندما يزورون أضرحة الأولياء تبرئاً بها.

«مَنَاء» - صنم كلب وخزاعة - فهدمه.. وهكذا جعل رسول الله يحو كل معالم الوثنية والشرك في مكة وفيما حولها، حتى تذهب آثارها من النفوس، وحتى تتحرك العقول من أوهام التقاليد والعادات، وتخلص القلوب من كل ما يشوب تعلقها بالله وحده لا شريك له.

أعدت هوازن وثقيف لحرب النبي فبادرهم بالغزو

وكأنما عز على هَوَازَنَ وثَقِيف أن تدور عليهم الدائرة، وأن ينالهم ما نال قريشًا من تبديل دينها، وتهديم أصنامها، ومن خضوعها لسلطان محمد بعد ما كان من عزها وسؤددها.. وكانت ثقيف تقيم بالطائف، وكانت هوازن تجاورها في جبال هناك حول الطائف. وكانت الطائف أخصب بقاع الجزيرة ومقر عبادة «اللآت»، أكبر أصنام العرب بعد «هُبَل»؛ فظن أهلها أن محمدًا لا بد منصرف إليهم بعد الفراغ من أمر قريش. فاجتمع ذوو الرأي من هوازن وثقيف، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رأيهم على أن يبادروا محمدًا بالغزو قبل أن يبادرهم، وأخذوا يستعدون لذلك، ويستعينون بمن حولهم من القبائل، ممن يرون رأيهم؛ فانضم إليهم قبائل نصر وجُشَم وسعد بن بكر وناس من بني هلال، واجتمع لهم بذلك خلق كثير.. فلما التأم جمعهم جعلوا أمرهم إلى مالك بن عوف النصري.

وكان مالك فتى حديث السن شديد الحمية، فرأى ألا يخرج بقومه إلى المعركة إلا في أشد ما يكونون حمية وحاسة؛ فأخرج مع القوم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ليكون ذلك أدعى إلى حماسة الرجال واستماتتهم في الذود عن حرماهم. وكان في القوم دُرَيْدُ بن الصَّمَّة، وهو شيخ حنكته التجارب وعركته الحروب، ولكنه أَسَنُّ وهَرِمٌ فلم يعد قادراً على قيادة الجيوش. فلما سمع بما فعله مالك بن عوف سأله عن ذلك، فقال له مالك: "إنما أردت أن أجعل وراء كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم". فقال له دريد: "وهل يريد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك". . . ولكن مالكا ركب رأسه وأصر على ما رأى، وتابعه القوم على هواه فخرجوا بأهلهم وأموالهم.

وسمع رسول الله ﷺ بما أعدت له هوازن وثقيف، فبعث إليهم عيناً من عيونه ليستطلع له حقيقة أمرهم. فلما تبين له صدق ما عزموا عليه، أراد أن يفاجئهم قبل أن يفاجئوه؛ فخرج من مكة في يوم السبت السادس من شوال (٢٨ يناير سنة ٦٣٠)، قاصداً إلى هوازن وثقيف، في اثني عشر ألفاً من الرجال: عشرة الآلاف التي جاء بها إلى مكة، وألفان من أهلها وقد شارك أهل مكة في هذه الغزوة، وأمدوا رسول الله ﷺ بما

شاء من المال والسلاح.. أعاره صفوان بن أمية مائة درع - وقيل: أربعائة - وأسلفه بعض أشراف مكة من أموالهم، وخرج معه ناس من المشركين كثير؛ فخرج الجيش في مظهر بالغ القوة ظاهر الغلب، حتى ظن المسلمون أن لن يُغلبوا مع هذه الكثرة، وحتى قيل: إن نساء مكة وصبيانها خرجوا وراء الجيش طمعاً في الغنيمة.

كانت خطة العدو أن يأخذ المسلمين من جوانبهم على غرة في عمية الصبح

وكانت هوازن وثقيف ومن تابعهم من قبائل العرب قد خرجوا برجالهم إلى وادي حُنين، وهو واد من أودية تهامة، أجوفٌ منحدر، ينفرج بعد طريق جبلي كثير المضائق والشعاب، وينحدر عند مدخله انحداراً شديداً. وقد رأى مالك بن عوف أن يعسكر عند مدخل ذلك الوادي، وأن يستغل طبيعة المكان في تحطيم قوة المسلمين؛ فجعل فريقاً من رجاله في رءوس المضائق والشعاب، وعبأ بقية الجيش في جوانب الوادي ومكانه، وأمر الرماة أن يفاجئوا طلائع المسلمين عند ظهورها بنبلهم، وأن يصبوا عليهم من رءوس المضائق والشعاب حتى يذهلوهم، فإذا أذهلتهم المفاجأة وأخلت نظامهم، هجم عليهم

الرجال وهم في غمرة الذهول والاضطراب؛ فيميلون عليهم ميلة واحدة.

هكذا دبر مالك بن عوف خطته - أو لعلها كانت كذلك - وكأنما كان على علم بخطوات عدوه فوضع خطته على أساس؛ فقد ذكرت الروايات أن رسول الله ﷺ انتهى إلى حنين في مساء ليلة الثلاثاء، لعشر خَلَوْنَ من شوال؛ فلما كان من الليل، عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة واحدة. وعبأ رسول الله أصحابه في السَّحَر، وصفَّهم صفوفاً، ووضع الألوية والرايات في أهلها من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الخيل، وانحدر في وادي حنين على تعبته.

وكانما كانت خطة رسول الله ﷺ أن يفاجئ القوم في عماية الصبح، وهم مأخوذون بنومة البُكْرَة، ولم يكن يدري رسول الله ولا المسلمون أن القوم سبقوهم إلى الوادي، وكمنوا لهم في شعبه وأحنائه ومضايقه، "وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا"، كما يقول جابر بن عبد الله، رضى الله عنه.

العدو يفاجئ المسلمين بخطته فيرتدون أمامه في اضطراب وفوضى

وفي غَيبِ الصبح تحرك المسلمون، فسارت مقدمتهم من
الفرسان تحت إمرة خالد بن الوليد، ومن ورائهم سارت كتائب
الجيش، ومن وراء الجيش سار رسول الله على بغلته البيضاء،
وقد لبس لأمة الحرب وظاهر^(١) فيها بين درعين، ومن حوله
رجال من الصحابة، فيهم عمه العباس بن عبد المطلب. فما
كادت طلائع الجيش تنحط في مدخل الوادي، حتى فسجئوا
بالسهام تنحط عليهم في الظلام من كل فج، فما يدرون أمن
السماء تأتي أم من الأرض.. فضاقت عليهم الأرض بما رحبت،
ولم يجدوا لهم بداً من الارتداد، وكان ارتدادهم مفاجئاً وعلى
غير انتظام.. وانتهاز العدو هذه الفرصة فهجم بخيله ورجله،
وأمعن في ظهور المسلمين طعناً وضرباً، حتى استحرَّ القتل في
بني نصر بن معاوية، ثم في بني رثاب فشاع الاضطراب في
الجيش، وسرت في صفوفه عدوى الهزيمة، فجعل الناس
يتراجعون ويتدافعون في غير وعى.

(١) ظاهر بين درعين: لبس درعاً فوق درع.

الرسول يثبت ويهيب بالناس أن يرجعوا

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا الهلع، ورأى الناس يتدافعون والإبل يحمل بعضها على بعض، جعل يصيح بالناس: «أين أيها الناس؟.. هلموا إلى!.. أنا رسول الله!.. أنا محمد بن عبد الله!..»

أنا النسي لا كذب أنا ابن عبد المطلب والناس في هلعهم لا يسمعون ولا يعون، ولا يلوون على شيء مما يحيط بهم، حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ، فلم يبق معه إلا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وكان العباس بن عبد المطلب رجلاً جَهِير الصوت، فأمره رسول الله ﷺ أن يهيب بالأنصار والمهاجرين ليرجعوا، فجعل العباس يصرخ: "يا معشر الأنصار الذين آوؤا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، هلموا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم"!.. فما كادوا يسمعون الصراخ حتى انقلبوا يتواثبون إلى رسول الله ﷺ قائلين: "لبيك لبيك"!.. حتى إن أحدهم لَيترك بعيره لما يعوقه من تدافع الناس، ويسرع إلى رسول الله ﷺ راجلاً ومعه سيفه وترسه.

واجتمع حول رسول الله ﷺ طائفة من الرجال الصادقين في عزائمهم وفي إيمانهم، فصمدوا في وجه العدو حتى صدوا هجومه، ثم ترادف المسلمون وتتابعوا، وشد بعضهم أزر بعض حتى تماسكوا والتأموا. وكان الصبح قد أسفر وانكشفت لهم مواقع العدو، فحملوا عليه حملة رجل واحد. فتفرقت جموعه في كل ناحية؛ وتابع المسلمون فلول العدو يطاردونها حيث ذهبت، حتى قُتل من قتل، وأسر من أسر، وفر من فر. أما مالك بن عوف فقد فر إلى حصون الطائف فاحتوى بها، وترك وراءه كل ما ساق من الأموال والأنعام والنساء والبنين، فغم المسلمون شيئاً لا يكاد يحصيه العدد.

الرسول يتتبع العدو إلى الطائف بعد أن شتت جموعه في حنين

وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت وسيقت جميعها إلى وادي «الجعرانة»، ثم توجه بأصحابه إلى الطائف، حيث فر مالك بن عوف بمن نجا من رجاله ومن رجال ثقيف. وكانت ثقيف قد تحصنت بحصونها وغلقت أبوابها، وتزودت بكل ما تستطيع من مئونة وسلاح، وأخذت أهبتها لحصار طويل الأمد، إن أراد محمد أن يحاصرهم. وكان رجال ثقيف ذوى

خبرة بقتال الحصون، فأجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قواهم، وعلى إحباط كل محاولة يحاولها المسلمون للوصول إليها.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، ورأى أهلها قد اعتصموا بحصونهم، أراد أن يستأني بهم لعلمهم يسلمون دون قتال؛ ولكنه ما كاد يدنو من حصون الطائف حتى أمطره الرماة وابلا من السهام، فقتل طائفة من المسلمين وجرح طائفة، فابتعد رسول الله بأصحابه عن مرمى السهام، ثم ضرب عسكره حول الحصن، وحاصره بضعا وعشرين ليلة.

حاول المسلمون بكل وسيلة أن يخرجوا الأعداء من حصونهم فلم يستطيعوا

وفي خلال هذه المدة جعل المسلمون يتخذون الوسائل لإخراج المشركين من حصونهم فلم يستطيعوا.. طلبوا إليهم أن يخرج رجال منهم ليبارزوهم فأبوا أن يخرجوا، فعيروهم بالجن والفرار فلم يأبهوا بهم، فنصبوا عليهم المجانيق يرمونهم بالحجارة فلم ينل ذلك منهم؛ فدخل رجال من المسلمين في دبابه^(١)، ثم

(١) كانت الدبابة في تلك المهدود في أبسط مظاهرها، وكانت تتخذ من الخشب ليحتس بها الجنود وهم يتقنون الحصون.

زحفوا إلى جدار الحصن ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار فأخرجتهم من تحتها، ثم رمتهم بالنبل فقتلت منهم رجالا؛ فأخذ المسلمون يقطعون أعنابهم، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يتركها لله وللرحم، فنهى المسلمين عن قطعها..

وهكذا حاول المسلمون بكل وسائلهم أن يخرجوا المشركين من حصونهم، أو يقتحموها عليهم، فلم يستطيعوا. فأمر رسول الله ﷺ أن ينادى في عبيد ثقيف: «من خرج إلينا فهو حر». فلما سمع العبيد هذا النداء تسلل منهم بضعة عشر رجلا، فأعتقهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول يفك الحصار عنهم ويتركهم لعل الله يأتى بهم
وعلم رسول الله ﷺ من أولئك العتقاء أن ثقيفاً تزودت في حصونها بزاد سنة، وأنهم عازمون على البقاء فيها حتى ينفد زادهم، ثم يدافعون عنها بعد ذلك حتى لا يبقى منهم رجل.
فرأى رسول الله أن لا فائدة من طول الحصار، وأن العدو قد انكسرت الآن شوكته وأمن شره، وأنه قد صار في محبسه ذاك كثعلب في جحر، إن أقام عليه أخذه، وإن تركه لم يضره..
وكانت الأشهر الحرم قد آذنت وأوشك ذو العقدة أو أهل، فأثر

الرسول أن يرحل بأصحابه ويترك هذا العدو إلى حين، فلعل الله أن يهديه فيأتى إليه مسلماً طائعاً. وهكذا كان، وتحقق لرسول الله ما تمنى، فلم تمض إلا بضعة أشهر حتى أذعنست ثقيف، ودخلت في دين الله راضية مستسلمة.

الرسول يتألف قلوب السادة من قريش بالعطاء الجزل ليسلموا

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد قفلوا راجعين إلى «الجعرانة»، حيث حُبست غنائم يوم حنين؛ وهناك أمر رسول الله بإحصائها، فكانت أربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف من النساء والبنين. فاستأنى رسول الله بالسبي، وبدأ بالأموال فقسمها بين الناس، فكان نصيب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، ونصيب الفارس ثلاثة أمثال ذلك.

ولما كانت النفوس بطبيعتها طُلْعَةً إلى المال، وكان البذل والعطاء مفتاحاً من مفاتيح القلوب، ومدخلاً من مداخل النفوس، فقد أجزل رسول الله ﷺ العطاء لنفر من أشرف قريش ومن سادات العرب وأمرائها، يريد بذلك أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام. فقد علم صلى الله عليه وسلم أن كثيراً ممن

أسلم من هؤلاء السادة، لا يزال حديث العهد بجاهليته، وأن كثيراً ممن لم يسلم إنما خرج طمعاً في الغنيمة، فما زال يستعين على تأليف قلوبهم بالعطاء، حتى أسلم من لم يكن أسلم، واطمأن إلى الإسلام من كان قد أسلم.

جاء في إمتاع الأسماع أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى رسول الله ﷺ والفضة بين يديه فقال: "يا رسول الله، أصبحت أكثر قریش مالا". فتبسم ﷺ؛ فقال أبو سفيان: "أعطني من هذا يا رسول الله". فقال: «يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى يزيد". قال: «زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى معاوية يا رسول الله". قال: «زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "إنك لكریم، فذاك أبي وأمی! والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالتك فنعم المسالم أنت! جزاك الله خيراً!"

وروى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية يومئذ مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة.. ثم رآه يرمق شعباً مملوءاً نعماً وشاء فقال له: «أعجبتك هذا الشعب يا أبا وهب؟» فقال: "نعم". فقال: «هو لك بما فيه». فقال صفوان: "إن الملوك

لا تطيب نفوسها بمثل هذا.. ما طابت نفس أحد بمثل هذا
إلا نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله“.

خفيت حكمة الرسول على فريق من الناس فظنوا به الظنون

وقد خفيت على كثير من الناس حكمة رسول الله ﷺ فيما
غمر به المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء، حتى قال بعض
الرجال: ”إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه
الله“.. فغضب رسول الله حين علم بذلك وقال: «ومن يعدل
إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من
هذا فصبر»!.. وحتى خشي الأعراب أن يذهب أولئك السادة
بالأموال، فاتبعوا رسول الله يقولون: ”يا رسول الله، اقسم
علينا فيئنا“.. فما زالوا به حتى ألجئوه إلى شجرة فانتزعت عنه
رداءه. فقال صلى الله عليه وسلم: «أدوا على رداي أيها
الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَمَ لقسمتها عليكم،
ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانًا ولا كذابًا!.. ثم أخذ وبرّة من
سنام بعير فرفعها بين إصبعيه وقال: «والله مالى من فيئكم
ولا هذه البرّة، إلا الخمس.. والخمس مردود عليكم».

كما خفيت على الأنصار فوجدوا عليه في أنفسهم

وقد خفيت هذه الحكمة على الأنصار أنفسهم، حتى جعلوا يتهامون القول فيما بينهم.. فعن أبي سعيد الخدري قال: «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد^(١) هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: "لقد لقي - والله - رسول الله قومه"!! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: "يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا النقيء الذى أصبت، فقسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء". قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: "يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي". قال: «فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة».

تربية عالية

فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله

(١) وجد: أسروا الغضب.

ثم قال : « يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَى فِي أَنْفُسِكُمْ؟ .. أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً^(١) فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ » قَالُوا : ”بَلَى، وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ“ ..!

ثم قال : « أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ .. قَالُوا : ”بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ“ ! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَمَّا - وَاللَّهِ - لَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ فَلصَدَقْتُمْ وَصُدُّقْتُمْ .. أَتَيْنَا مَكْذِبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَغَدُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ^(٢) .. أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لَعَاةٍ^(٣) مِنْ الدُّنْيَا، تَأَلَّفَتْ بِهَا قُلُوبُ قَوْمٍ لِيَسْلُمُوا، وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ .. أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رَحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ شُعْبَ الْأَنْصَارِ! .. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ! .. فَبَكَى الْقَوْمَ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهِمُ^(٤)، وَقَالُوا :

(١) عالة : فقراء ..

(٢) عائلا : فقيرًا، آسيناك : أغناك بمالنا ..

(٣) لعاعة : شيء يسير ..

(٤) أخضلوا : بللوا بدموعهم ..

”رضينا برسول الله قَسَمًا وحَظًّا!“

وكان هذا درسًا بليغًا من دروس التربية العالية، ألقاه رسول الله ﷺ على أصحابه؛ في أنسب الأوقات وأصلحها للانتفاع بالدرس، فارتفع بهم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنساني، تعلو بهم على المال، وعلى الجاه، وعلى كل ما يتكالب عليه الناس من متاع الحياة الدنيا.

الإيمان هو السلاح الأول للمؤمن

وكما كانت الغنيمة في حنين درسًا من دروس التربية العالية لخاصة المسلمين، كانت الهزيمة فيها درسًا من دروس التربية العالية لعامةهم؛ فقد خرج المسلمون إلى هذه الغزوة بعد أن فتح الله عليهم أغلاق مكة، وبعد أن أذل لهم كبرياء قريش، وبعد أن ملكهم أمر البيت الحرام، وأمكنهم من نواصي العرب، وأوشكت الجزيرة كلها أن تدين بدينهم، وتخضع لسلطانهم.. خرجوا وهم في فَوْرة الفوز بكل هذا، وفي سَوَرة العُجب بما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد، ونظروا إلى كثرتهم فأعجبوا بها، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها كل شيء؛ فأراد الله أن يعلمهم أن الكثرة قد تَخْدَع، وأن القوة قد تَخُون، وأن النصر بيد الله وحده، وأن سبيله وأساسه إنما هو صدق الإيمان بالله

وحسن الاعتماد عليه، وأن الكثرة والعتاد والتعبئة والنظام وما إليها، مما ينبغي أن يتزود به المسلمون من أسباب القوة... إنما تقوم على هذا الأساس وتستمد من هذا المعين.

لقد بلغ المسلمون في هذه الغزوة كثرة لم يبلغوها قط، فهل أغنت الكثرة عنهم شيئاً؟ ها هم أولاء على هذه الكثرة مهزومون، يتدافعون أمام عدوهم تدافع السيل، ويتككبكون تككبب الأنقاض من البناء الشامخ، حين ينهار أعلاه على أسفله، حتى شمت بهم الشامتون، وقال قائلهم: "ألا بطل السحر اليوم، فلا تنتهي هزيمتهم دون البحر"... ولكن شيئاً واحداً أنقذ الموقف، هو هذه الفئة القليلة التي لاذت بإيمانها، وأحاطت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يدها بثقله وبقينه، ورتجه بقلوبها ونفوسها إلى الله القوى، لتستمد منه العون والقوة. فلما أخلصت هذه الفئة القليلة قلوبها ونفوسها لله، وأحسنّت الصلة به والالتجاء إليه، جاءها المدد سريعاً، فانقلب ضعفها قوة، ويأسها بأساً، وهزيمتها نصراً مؤزراً.

حقيقة خالدة ينبغي أن يعرفها المسلمون اليوم

وهكذا ركن المسلمون إلى أنفسهم ساعة من نهار، فوكلهم الله إلى أنفسهم، فكانت الهزيمة على كثرة العدد وقوة العتاد؛

فلما رجعوا إلى ربهم واستعانوا به، جاءهم العون والتأييد والمدد القوي، فكان النصر الكريم والفوز العظيم : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذَبِّبِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

هكذا قال الله في المسلمين يوم حنين وألقى عليهم ذلك الدرس العملي، فاتعظوا به وتعلموا منه؛ فهل يدرك المسلمون اليوم حقيقة حالهم؟ وهل يشعرون بمبلغ ضعفهم أمام أعدائهم؟ وهل يعرفون السر فيما هم عليه من ضعف على كثرة ما هم عليه من عدد؟.. إن هذا السر واضح وضوح الشمس، ولكن المسلمين يُغْمِضُونَ عنه أعينهم، ويدفنون رؤوسهم في الرمال ليستخفوا منه؛ فقد هجر المسلمون دينهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، فغَدُوا كزُرْعَ غَاضٍ مَآوَةٍ، وانقطع عنه غذاؤه، فأصبح هشياً تَذْرُوهُ الرِّيحُ.

إن المسلمين اليوم لكثير، ولكنهم كثرة لا غناء فيها؛ فأينما نظرت وجدتهم أمماً مغلوبة على أمرها، يتحكم فيها أعداء دينهم، ويستمتعون دونها بخيرات أوطانها، ويسخرونها في منافعهم

(١) سورة التوبة آيتا ٢٥، ٢٦،

كما تسخر العبيد، ويتحكمون في شئوننا تحكم السادة، ويعقدون لذلك المؤتمرات ويرمون العهود، وأصبحوا وكأننا عنهم الشاعر القديم بقوله :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبَ تَمِيمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهَدَاؤُ
وهكذا تحقق في المسلمين قول الرسول الأمين : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصصها .. » قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « لا ، بل أنتم حينئذ كثر ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »^(١).

إن موقف المسلمين اليوم في كثرة عددهم وغلبهم لأعدائهم، شبيه بموقف المسلمين يوم حنين، إذ أعجبهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً؛ ولكن المسلمين يوم حنين أفاقوا من غشيتهم، وسارعوا بالرجوع إلى ربهم فسارع إليهم نصره وتأيده. أما المسلمون اليوم فلا يزالون يغطون في النوم، ويمعنون في البعد عن سواء السبيل.. فهل آن الأوان لأن يستيقظ المسلمون من نومهم، ويفيقوا من غفلتهم، ويصلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد، وعزمهم السالف، وأيامهم الغر الميامين؟.. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا

(١) غثاء السيل : ما يحملة من القش والحطب وما إليها.

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١١﴾؟

لعله قد آن الأوان، ولعل هذه اليقظة التي أخذت تدب
في العالم الإسلامي بشير فجر جديد، ومطلع من مطالع النور
لهذه الأمة الحائرة، يخرجها من الظلمات ويهديها إلى الطريق،
ويوقفها على ما أودع الله لها في دينها من ذخائر القوة والعزة
والسعادة؛ فتقوى به بعد ضعف، وتَعَزَّ بعد ذلة، وتسعد بعد
شقاء.. !

الرسول يرد على هوازن أموالها وأهلها

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تقسيم السبي والأموال جاءه وفد
هوازن مسلمين، يرجون أن يرد عليهم أموالهم وأهلهم، فخيرهم
رسول الله بين السبي والأموال، فاخترأوا أبناءهم ونساءهم.
فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إن هؤلاء القوم جاءوا
مسلمين، وقد كنت استأنيت بسبيهم، وخيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء
والنساء شيئاً؛ فمن كان عنده من سبيهم شيء، فطابت نفسه أن
يرده، فسيبيل ذلك، ومن أبى فليرد عليهم، وليكن ذلك قرضاً
علينا، فله بكل إنسان ست فرائض من أول ما يُفِيء الله

(١) سورة الحديد الآية ١٦.

علينا».. قالوا: "رضينا وسلمنا".. فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد غير عُيَيْنَةَ بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجزاً صارت في يده منهم، ثم ردها بعد ذلك.

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، فعلم أنه لا يزال بالطائف مع ثقيف؛ فطلب إليهم أن يبلغوه أنه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل. فلما علم مالك بوعده رسول الله، تسلل من وراء ثقيف، وأتى رسول الله مسلماً. فأعطاه رسول الله ما وعده، وأمره على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ويغير على سرحهم حتى ضيق عليهم.

عودة الرسول إلى المدينة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الغنائم خرج من الجعرانة معتمراً، وذلك في ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي القعدة، فأحرم بعُمرة، ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه، ثم رجع إلى الجعرانة من ليلته.

واستخلف رسول الله ﷺ على مكة عَتَّاب بن أُسَيْد، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن. وكان عتاب فتى في نحو العشرين من عمره، لكنه كان

ورِعًا تقيًا، فأهله ورعه وتقواه لأن يكون أميرًا على مكة
أم القرى، على حداثة السن وغضارة العود، فاستعمله رسول
الله ﷺ عليها، وجعل له كل يوم درهمًا؛ فكان عتاب يقول:
«أجاع الله كبد من جاع على درهم! لقد رزقني رسول الله
درهمًا كل يوم، فليست بي حاجة إلى أحد»..

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، فقدمها في
آخر ذى القعدة، أو في مستهل ذى الحجة، سنة ثمان.. وهكذا
انتهت سنة ثمان بفتح مكة، وزالت العقبة الكثود التي طالما
سدت الطريق وعاقبت السير، فانبعث الإسلام بعدها فياضًا في
أرض الجزيرة، وانطلق يغمر كل ناحية من نواحيها، كما يغمر
السيل الدافق جديب الأرض، فيغمرها بالرى والخصب والثمار.
وأقبلت السنة التاسعة فأقبلت معها وفود العرب من أنحاء
الجزيرة، تأتي طائفة إلى المدينة، لتعلن إلى رسول الله ﷺ
إسلامها وطاعتها، وتدخل في دين الله راضية مطمئنة.

غزوة تبوك

تبعات الأمة الإسلامية

كان فتح مكة إيذاناً بدخول الجزيرة العربية كلها في حظيرة الإسلام، وتكتلُ العنصر العربي كله تحت لوائه؛ فقد أدرك العرب بعد فتح مكة وبعد إسلام قريش، أنه لا مناص لهم من الدخول في الإسلام إن عاجلاً وإن آجلاً. ذلك أن العرب - كما يقول ابن إسحاق - : "إنما كانت تَرِيضُ بالإسلام أمر هذا الحى من قريش؛ كانوا إمام الناس وهادِيهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليها السلام، وقادة العرب.. لا يُنكرون ذلك؛ وكانت قريش هى التى نَصَبَتْ للحرب رسول الله ﷺ وخلافه. فلما افْتُتِحَتْ مكة، ودانت له قريش ودَوَّخَهَا الإسلام، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا في دين الله - كما قال الله عز وجل - أفواجاً، يَضْرِبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ"؛ وأصبحوا بين مسلم قد دخل في الإسلام فصار من أهله، ومشرك قد تهيأ

للدخول فيه بين يومه وغده. فما هى إلا دورة العام حتى صارت جزيرة العرب مؤئل الإسلام، وصار أهلها من العرب هم أهلهم ومُحاته.

ومن هنا أخذت أمة الإسلام تتكَيَّف في الجزيرة تكيفاً دولياً، وتظهر في الوجود كدولة لها كل المقومات التي تحفظ كيانتها، وتضمن سلامتها، وتحميها من كل ما يعوق سيرها وتقدمها.. لم يكن المراد بها أن تكون أمة كسائر الأمم؛ إنما كان المراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، مهمتها أن تصلح الفساد وتقوم العِوَج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ يدفعها إلى ذلك إيمانها بالله وحده، ورغبتها في أن تقوم الحياة في هذه الأرض على الأساس الذي وضعه الله لعباده، وأن تسير في الطريق الذي يحبه ويرضاه لهم.

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام في الجزيرة العربية، ولأجل هذه الغاية وضعت لها القواعد التي تضمن سلامة مجتمعتها من كل آفة، وحماية أرضها من كل عدو، وإعداد أفرادها للنهوض بأعباء الأمة المثالية الخيرة، ولاحتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات، وما يترتب على مطاردة الشر وإشاعة الخير من تكاليف. وهى مهمة ثقيلة

التبعات باهظة التكاليف، ولكنها المهمة التي ندب الله لها أمة الإسلام، وجعلها - من أجلها - خير أمة أخرجت للناس.

كان قيام الدولة الإسلامية مهدداً لمصالح الروم في جزيرة العرب

بينما كان رسول الله ﷺ يُعد أمته لهذه المهمة العظيمة، ويظهر جوها من آثار الفساد والشر، ويمحو من أرضها معالم الشرك والوثنية، ويبعث السرايا إلى من حوله من قبائل العرب فتهدم الأصنام وتنشر الإسلام.. كان الروم في شمال الجزيرة ينظرون إلى هذه الحوادث نظر التوجس والخوف؛ ذلك أن الروم كانت لهم مصالح شتى بالجزيرة العربية، وكانت هذه المصالح تتأثر - ولا شك - بما يجري في الجزيرة من حوادث.. كانت لهم تجارة تمر خلال الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب؛ وكان لهم أتباع من العرب في شمال الجزيرة يأتمرون بأمرهم ويخضعون لسلطانهم، كما كان لهم في قلب الجزيرة أنصار يعتمدون عليهم في حماية تجارتهم؛ وكانت النصرانية - وهي دين الدولة الرسمي - يدين بها الغساسنة أتباع الدولة من العرب، كما يدين بها عدد غير قليل من العرب الأحرار في الشمال والجنوب.

كانت هذه كلها مصالح يحرص الروم على بقائها خالصة لهم، وكان من العوامل التي تساعد على بقاء هذه المصالح خالصة للروم، أن العرب كانوا - بطبيعة حياتهم - قبائل متفرقة، ولم تكن لهم وحدة جامعة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم، وكانت كل قبيلة إنما يهملها أمر أفرادها أو أمر حلفائها إن كان لها حلفاء؛ ومن هنا كانت كلمة العرب في تفرق دائم، وكان من صالح الروم أن يستمر هذا التفرق بين العرب، ليستمر سلطانها مبسوطاً على أتباعها منهم، وليستمر جانب غيرهم من العرب مأموناً على مصالحها في نواحي الجزيرة، ولكي لا يستطيع العرب أن يقفوا أمام الروم صفّاً واحداً في ذات يوم، فيكلفوا الدولة عناء تفريقهم إذ هم تجمعوا.

فلما ظهر الإسلام في جزيرة العرب، وأخذ يوحد كلمة العرب ويجمع صفوفهم تحت لوائه، وظل صوته يعلو ثم يعلو حتى طرق أسمع الملوك من حوله، ومحيطه يتسع ثم يتسع حتى كاد يضم أطراف الجزيرة.. أخذ الروم يتنبّهون لخطر هذا الحادث الجديد. ولعل أول ما نبههم إليه تلك الدعوة الجرئية التي وجهها رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، يدعوه فيها إلى الإيمان بالله وحده، وإلى أتباعه فيما يدعو إليه، وإلى دعوة من وراءه من الروم وغير الروم إلى الدخول في الإسلام، ويحمّله فيها

تَبِعَةُ التَّقْصِيرِ فِي الْإِذْعَانِ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَفِي تَبْلِيغِهَا إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ
مِنَ الْآتِبَاعِ وَالْأَنْصَارِ.

وَالتَّارِيخُ يَقْصُ عَلَيْنَا أَنَّ قَيْصَرَ الرُّومِ لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ خَطَرَ
هَذِهِ الدَّعْوَةِ، بَلْ كَانَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ صَرَّحَ بِمَا لَهَا مِنْ خَطَرٍ عَلَى
سُلْطَانِ الْمُلُوكِ وَمُهَابَةِ الدُّوَلِ؛ فَقَدْ جَعَلَ هِرْقُلُ - حِينَ وَصَلَتْ
إِلَيْهِ رِسَالَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَسْأَلُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ يَكُونُ مِنْ
قَوْمِ هَذَا النَّبِيِّ لِيُخْبِرَهُ خَبْرَهُ، حَتَّى عَثَرَ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ
حَرْبٍ، فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ سُؤَالَ الْعَارِفِ الْمُتَفَحِّصِ عَنْ كُلِّ مَا يَرِيدُ
مِنْ أَمْرِهِ؛ حَتَّى إِذَا عَلِمَ عِلْمَهُ وَعَرَفَ حَقِيقَتَهُ، قَالَ لِأَبِي سَفْيَانَ:
”... إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ“.

كَانَ الرُّومُ يَتَابِعُونَ سِيرَ الدَّعْوَةِ مُتَابَعَةً دَقِيقَةً

كَانَتْ دَوْلَةُ الرُّومِ إِذْنًا عَلَى عِلْمِ بَدْعَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تَقْدِرُ
مَا لَهَا مِنْ خَطُورَةِ الشَّأْنِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ سَتَمَسُّ مَصَالِحَهَا
مَسَاسًا كَبِيرًا، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهَا أَلَّا تُغْفَلَ أَمْرُهَا أَوْ تَسْتَنِمَّ إِلَى
جَوَارِهَا. وَلَعَلَّ وَاقِعَةَ «مُؤْتَةِ» كَانَتْ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامَ بِهِ الرُّومُ
لِدَرءِ هَذَا الْخَطَرِ عَنْ دَوْلَتِهِمْ، وَإِلْخَادِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي ظَنُّوْهَا
شَرَارَةً لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْطَفِئَ؛ فَلَمَّا رَأَوْا أَنْصَارَهَا لَيْسُوا مِنَ الْهَوَانِ
كَمَا تَصَوَّرُوا، أَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْجَدِّ وَالْإِهْتَامِ، وَجَعَلُوا

يتعرفون أخبارها، ويتابعون سيرها متابعة دقيقة. وكان لهم عيون ينقلون إليهم هذه الأخبار، ويوقفونهم أولاً بأول على كل ما يجري بين رسول الله ﷺ وأصحابه.

فهذا كعب بن مالك يذكر من حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في «غزوة تبوك» ونهى رسول الله أصحابه أن يكلموه.. أن ملك غسان بعث إليه بكتاب يقول فيه: "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضِيعَةً؛ فالحقُّ بنا نواسِكُ". ودولة الغساسنة كانت حينذاك تابعة لدولة الروم؛ فلولا أن الروم كانوا يتابعون أخبار الرسول وأصحابه، لما كان من الحتم أن يصل مثل هذا النبأ إليهم، ولا كان من الطبيعي - لو أنه وصل - أن يهتم به ملك غسان هذا الاهتمام.

مسجد الضرار

وفي قصة «مسجد الضرار» طَرَفٌ آخر، يشير إلى ما كان من هذه الصلة بين الروم وبين المنافقين من أهل المدينة؛ فقد ذكرت الروايات أن أبا عامر الراهب لم يطق البقاء في المدينة، بعد أن ظهر فيها أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره على هذا النبي، فوعده ومنّاه

وأقامه عنده؛ فكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل
 النفاق والرَّيْب يَعِدُّهم، ويمنيهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به
 محمدًا، ويغلبه على أمره، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا
 له مَعْقِلًا يقدّم عليهم فيه مَنْ يرسله بكتبه إليهم، ويكون مرصّدًا
 له ولهم إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور
 لمسجد قباء، حتى بنوه وأحكموه، ثم أتوا رسول الله ﷺ وهو
 يتجهز إلى تبوك، فقالوا: "يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا
 لذي العلة والحاجة، واللييلة المطيرة واللييلة الشاتية؛ وإنا نحب أن
 تأتينا فتصلى لنا فيه" - يريدون بذلك أن يُقرهم رسول الله على
 بنائه وإثباته. فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنا
 على جَنَاح سفر وحال شُغل، ولو قدمنا - إن شاء الله تعالى -
 أتيناكم فصلينا لكم فيه». فلما قفل ﷺ راجعًا من تبوك، ولم
 يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم.. نزل عليه الوحي
 بنجر مسجد الضرار، وما قصد إليه بانوه من الكفر والتفريق بين
 المؤمنين، ومن الإِرصاد فيه لمن حارب الله ورسوله من قبل؛
 فبعث رسول الله ﷺ إلى هذا المسجد مَنْ هدمه قبل مقدمه
 المدينة.. وفي هذا الحادث يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلُقَنَّ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَادِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ^(١).

الروم يعدون عدتهم للقضاء على دولة الإسلام

لم يكن الروم إذن بمعزل عن دعوة الإسلام، ولم يكونوا
بحيث يجهلون ما يَحْدُثُ من أخبارها وحوادثها، فلما فتح الله على
رسوله مكة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فياضة في نواحي
الجزيرة، أيقن الروم أن الخطر يوشك أن يواقعهم، وأنه لا بد
من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره. وكانت
دولة الروم لا تزال في عنفوانها وقوتها، ولم يكن قد مضى على
انتصارها على دولة الفرس غير بضع سنين، وكان لديها من
القوة والعتاد ما تظن أنها قادرة به على تحطيم أمة الإسلام،
وهي لا تزال وليدة في المهد.

ومن أجل ذلك أعد الروم عدتهم للقضاء على هذه الأمة
الناشئة، قبل أن يشتد أمرها ويتفاقم خطرها؛ ولعلمهم أرادوا أن
يهاجروها في عُقْرِ دارها، ليقطعوا دابرها ويفرغوا في التَّوَّ من
شأنها؛ فجمعوا ما شاءوا من الجموع وأعدوا ما شاءوا من

(١) سورة التوبة آيتا ١٠٧، ١٠٨.

العتاد، وأخذوا أهبتهم لقطع تلك الفياق البعيدة والصحارى الواسعة.

وبلغ رسول الله أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجْلَبَتْ معه من قبائل العرب لَحْمٌ وَجُذَامٌ وَعَامِلَةٌ وَغَسَّان، وقَدَّمُوا مقدماتهم إلى البُلُقَاء؛ فكان لابد أن يفكر رسول الله ﷺ في دفع هذا العدوان عن أمته، وكان أمامه - كما يقول المؤرخ بودلى - طريقتان لمقابلة هذا التحدى: أولاهما أن يدع الرومان يتغلغلون في صحراء بلاده ثم يقابلهم حيثما يحلو له، والثانية أن يهجم عليهم بنفسه. وكانت الأولى هى الأيسر والأسهل، ولكنها قد تؤدي إلى فِقدانه بعض القبائل التى حالفها حديثاً؛ فاختار الطريقة الثانية.

الرسول يدعو لملاقاة الروم فيتنافس المخلصون في تجهيز الجيش

وكان من الطبيعى - وقد صارت جزيرة العرب موثلاً دولة الإسلام - أن يقع عبء الدفاع عنها على أهلها من العرب الذين أسلموا؛ فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم، وأعلمهم المكان الذى

يريد ليتأهبوا لذلك. وخطب ﷺ في الناس، فحضر على الجهاد وأمر بالصدقة، ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين؛ فتبادر المسلمون ينفقون من أموالهم، ويتنافسون في تجهيز جيشهم.

فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بغير وخسين فرساً، وجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم هى كل ماله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتى أوقية من الفضة، وحمل العباس بن عبد المطلب مالا يقال إنه تسعون ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة مالا كثيرا، وتصدق عاصم ابن عدى بتسعين وسقاً من التمر. وسأهم النساء بكل ما قدرن عليه من حُلِيِّهن، فكن يُلقين في ثوب مبسوط بين يدى رسول الله ﷺ ما بأيديهن من المسك والمعاصد والخواتيم، وما بأرجلهن من الخلاخيل والخدّامات^(١)، وما بأذانهن من الشنوف والأقراط، وما بأعناقهن من العقود والقلائد. . وتنافس المسلمون في البذل، حتى إن الرجل لياقى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما:

(١) المسك: أسورة تلبس في معصم اليد. والمعاضد: أسورة تلبس في المعضد. والخدّامات: أنواع من الخلاخيل التى تلبس في الرجل.

”هذا البعير بينكما تعتقباه“، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيا بعض من يخرج.

وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارزون في تجهيز الجيش كل بحسب طاقته؛ فمن استطاع أن يجهز غير نفسه جهز بقدر ما يستطيع، ومن لم يستطع جهز نفسه وكفى. وعجز نفر من فقراء المسلمين عن تجهيز أنفسهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يُجملهم على ما عنده من فضل الركائب؛ ولم يكن عند رسول الله منها فضل، فجعل يصرفهم ويقول لهم: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَجْمَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾. فانصرفوا وعيونهم تفيض من الدمع، حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد، بسبب فقرهم وعجزهم عن تجهيز أنفسهم.

وأخذ المنافقون ينتحلون الأعذار ويشبطون الهمم

أما المنافقون فقد أخذوا يتعللون ويتحلون الأعذار ليتخلفوا عن الركب؛ وكانوا من الأغنياء القادرين على تجهيز أنفسهم وتجهيز غيرهم، ولكن النفاق ضرب على قلوبهم فلجأوا إلى الحيلة يعتذرون، وجعلوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود فيأذن لهم ويُعرض عنهم. ولم يكتف المنافقون بأن يقعدوا، بل جعلوا يشبطون الناس ويخوفونهم لقاء الروم، ويُرجفون برسول

الله، صلى الله عليه وسلم، ويقولون فيما يقولون: "يغزو محمد بنى الأصفر مع جَهْدِ الحال والحر والبلد البعيد! أيجسب محمد أن قتال بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنكم بأصحابه غداً مُقَرَّنِينَ فى الحبال..!" وكان العرب ينظرون إلى دولة الروم حينذاك، كما ننظر نحن اليوم إلى دول أوروبا وأمريكا. ﴿وجاء المَعْدُرُونَ من الأعراب لِيُؤْذَنَ لَهُم وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) ولكن ذلك لم يمنع المسلمين أن يُعدوا للخروج عدته، وتتابع الناس يتوافدون على المدينة من كل صوب، حتى زاد عددهم على ثلاثين ألفاً.

خرج الرسول إلى تبوك فى ثلاثين ألفاً

وضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، واستخلف عليه أبابكر يصى بالناس، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة؛ وعقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر، ودفع رايته العظمى إلى الزبير، ودفع راية الأوس إلى أسيد ابن حُضَيْرٍ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر، وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء أو راية؛ وخرج فى شهر رجب من السنة التاسعة (سبتمبر وأكتوبر ٦٣٠)، قاصداً

(١) سورة التوبة الآية ٩٠.

إلى ناحية الشام، في ثلاثين ألفاً من الناس، والخيـل فيها عشرة آلاف فرس. وكان عبد الله بن أبي خـرج في حلفائه من اليهود والمنافقين، فعسكر بهم إزاء عسكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فلما أجمع رسول الله السير، تخلف عنه عبد الله بن أبي ومن كان معه، كما تخلف عنه في غزوة أحد.

قاسى المسلمون في هذه الرحلة مشقة بالغة

ولم يكن الطريق سهلاً، ولا السفر قريباً، ولا الوقت ملائماً للسير؛ إنما كان ذلك في زمان عُسرة من الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد.

وحين طابت الثمار والظلال، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذى هم فيه^(١)؛ ولكنه الجهاد لدفع عدو مهاجم، ودرء خطر جائئ على الأبواب، فما كان المؤمنون - وهم أهل الدعوة وحماها - لينكلوا عن الجهاد، مهما تكن الأسباب غير مواتية، ومهما تكن الظروف غير ملائمة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) ابن إسحاق

وَلَا يَطْتُونُ مَوْطِنًا^(١) يَغِيْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢).

وقد قاسى رسول الله ﷺ وأصحابه فى هذه السَّفرة مشقة بالغة وعتًا كثيرًا؛ فقد اجتمع فيها إلى بُعد الشَّقة وشدة الحر، جَهْدُ الحال وشحُّ المئونة وقلة الظُّهر^(٣)، حتى سماها الله تعالى: ﴿سَاعَةُ الْعُسْرَةِ﴾. روى الإمام أحمد فى تفسير قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾^(٤) قال: "خرجوا فى غزوة تبوك: الرجال والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا فى حر شديد، وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفُضُوا أكراشها ويشربوا ماءها؛ فكان ذلك عسرةً فى الماء، وعسرة فى النفقة، وعسرة فى الظُّهر".

وقال قتادة: "خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لُهبان الحر"^(٥)، على ما يعلم الله من الجَهْد^(٦)؛ فأصابهم فيها جهد

(١) النصب: التعب، والمخمصة: المجرع؛ والوطء: السير.

(٢) الظهر: الركائب.

(٣) لُهبان الحر: شدة الحر.

(٤) سورة التوبة آيتا ١٢٠، ١٢١.

(٥) الجهد: المشقة.

(٦) سورة التوبة الآية ١١٧.

شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها”
وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه : حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر : ”خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع.. وحتى إن الرجل لينحز بعيره فيعتصر قرنه^(١) فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده. فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله، إن الله عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا ! فقال : «أوتحب ذلك»؟ قال : نعم. فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء، فلم يرَجهما حتى قالت السماء - أى آذنت بمطر - فأطلت ثم سكبت^(٢)، فلتثوا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر”.

كانت هذه الرحلة الشاقة امتحاناً تميز فيه

المؤمنون الصادقون من المنافقين

لقد كانت هذه المشقة التى عاناها المسلمون فى السير إلى تبوك امتحاناً من الله لهم، أراد به تمحيص المؤمنين

(١) الفرث : بقايا الطعام فى المعدة.

(٢) الطل : المطر الخفيف، والسكب : المطر الدافق.

واستخلاصهم، وإعدادهم لاحتمال مشاق الجهاد في سبيله،
ولينظر مبلغ صبر الصابرين وصدق الصادقين في سبيل الذُّود عن
دينهم، فكان لا يحتمل هذه الشدة إلا الذين صدق إيمانهم
ورسخت عقيدتهم؛ أما الذين نافقوا وتظاهروا بالإيمان، فقد
تضعفوا وخارت عزائمهم، فكانوا يتسللون من وراء الصفوف
راجعين.

قال ابن إسحاق: «ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً، فكان
يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان.
فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيُلْحِقْه الله تعالى بكم،
وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». وتلوم^(١) أبو ذر على
بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج
يتبع أثر رسول الله ماشياً. ونزل رسول الله ﷺ في بعض
منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا
لرجلٌ يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله، صلى الله
عليه وسلم: «كن أبا ذر!» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول
الله، هو - والله - أبو ذر. فقال رسول الله، صلى الله عليه
وسلم: «رحم الله أبا ذرا يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث
وحده»..

(١) تلوم: تاخر.

أبو خيثة

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم الغيبة حتى تحلفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثة؛ وكانوا نفرَ صِدْق لا يُتهمون في إسلامهم. فأما الثلاثة الأولون فقد تراخت بهم العزيمة، وتمادى بهم الفتور، وأغراهم الظل والماء بالقعود حتى قعدوا، وكان لهم مع رسول الله ﷺ شأن أنزل الله فيه قرآنًا؛ وأما أبو خيثة فقد تدارك أمره قبل فواته، فلحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا خيثة رجع - بعد ما سار رسول الله أيامًا - إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريش لهما في حائطه^(١)، قد رشت كل منها عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله في الضَّح^(٢) والريح والحر، وأبو خيثة في ظل بارد، وطعام مهيا،

(١) الحائط: البستان يحوطه سور من البنيان.

(٢) الضح: لهب الشمس وحرارتها.

وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف^(١) ! ثم قال :
والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، صلى
الله عليه وسلم ! فهيناً لي زاداً.. ففعلتا ثم قدم ناضحه^(٢)
فارتحلها، ثم خرج في طلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم،
حتى أدركه حين نزل تبوك^(٣).

لم يجد الرسول أحدًا من الروم فلم يتجاوز تبوك
وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك وصار على حدود دولة
الروم، لم يجد أحدًا من العدو. ومن المحتمل أن يكون الروم
آثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام، ليتحصنوا بحصونها حين
بلغهم أمر هذا الجيش وقوته؛ كما يقول الدكتور هيكل. ومن
المحتمل أيضًا - كما يقول السيد إميل درمنغم - أن يكون
المسلمون قد عدلوا عن مواصلة زحفهم حينما علموا - خلافًا لما
كانوا يظنون - أن هرقل لم يجهز جيشًا لغزو المدينة. ويذهب
صاحب الإمتاع هذا المذهب، فيرى أن ما خُبر به النبي ﷺ من
تعبئة هرقل لأصحابه، ومن دنوه إلى أدنى الشام كان باطلاً؛

(١) بالنصف : بالعدل والإنصاف.

(٢) ناضحة : أحضر جملة فوضع عليه الرجل وأعدده للسفر.

(٣) ليست تبوك بلدًا، وإنما هي حصن به عين ماء ونخل، يقع في منتصف الطريق

بين المدينة ودمشق، ويبعد عن المدينة بنحو اثنتي عشرة مرحلة.

وأن هرقل لم يُرد ذلك ولا همَّ به.

وأما كان واقع الأمر فقد وقف رسول الله ﷺ عند تبوك لم يجاوزها. وبعث سراياه إلى من حول تبوك من نصارى العرب التابعين لدولة الروم، فصالحه أهل أيلة وأذرح وجرباء ومقنا ودومة الجندل، على أن يعطوا الجزية ويدخلوا في أمان الإسلام وعهده. وأقام رسول الله ﷺ بتبوك نحو عشرين ليلة، ثم استشار أصحابه في أن يجاوزوها إلى ما وراءها من ديار الشام، فقال له عمر: "يا رسول الله، إن كنت أمرت بالسير فسر". فقال صلى الله عليه وسلم: «لو كنت أمرت بالسير لم أستر فيه». فقال: "يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دُنُوك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يُحدث الله أمراً!..."

فتبع ﷺ مشورة عمر، وأمر بالقُفُول^(١)؛ فرجع الجيش إلى المدينة، بعد أن أُمِن رسول الله حدود الدولة من ناحية الشمال، بما عقد من المعاهدات بينه وبين نصارى العرب المجاورين للروم؛ وكان رجوعه، صلى الله عليه وسلم، في رمضان (ديسمبر سنة ٦٣٠). ولما قرب رسول الله من المدينة خرج الناس لتلقّيه،

(١) القُفُول: الرجوع.

وخرج مع الناس الصبيان والنساء والولائد، وصعدت المخدرات^(١) على الأسطحة نُشِدْنَ ويغنيْنَ، فرحًا بعودة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

كان ما نزل من الآيات في شأن هذه الغزوة أطول وأشد ما نزل من القرآن في شأن الغزوات

وفي أثناء رجوعه، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، نزل عليه ما نزل من سورة التوبة في شأن الذين تخلفوا من المنافقين والمقصرين بغير عذر. "والآيات التي أنزلها الله على رسوله في شأن هذه الغزوة، هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم"^(٢). وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام، وإفهام المسلمين مَغَبَّةَ تقصيرهم في أداء هذه الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مَزَلَّةً إلى الرَّدَّة والنفاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتِّفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

(١) المخدرات: النساء المحجبات في البيوت. وهن نساء الطبقة الراقية.

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٨ إلى آخر السورة.

الْآخِرَةَ إِلَّا قَلِيلًا * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١)

ومضت الآيات تتحدث في صراحة وعنف؛ ففضحت المنافقين، وكشفت المترددين، وأهانت طلاب الدعة والراحة، الذين آثروا ظل القعود في بيوتهم وحقوقهم على حر الصحراء، ووغناء السفر، ومتاعب الجلال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ^(٢) .

(١) فقه السيرة، والأيان من سورة التوبة رقم ٣٨، ٣٩.

(١) سورة التوبة الآيات ٨١ - ٨٥ .

على كل فرد في أمة الإسلام أن يقوم بواجبه في حمايتها وقت الخطر

والذى يلفت النظر فى الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، أنها أشد ما نزل من القرآن فى شأن المخلفين، مع أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال، ولم يلاق المسلمون فيها عدوهم. ويبدو أن الأمر فى شأن الجهاد ليس أمر قتال يقع أو لا يقع، إنما هو أمر واجب المسلمین فى حماية أمتهم من كل عدو يريد أن ينال منها، سواء أكان ذلك بالفعل أم بالنية، فواجب كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بنصيبه فى حمايتها، إلا أن يكون له عذر قاهر يحول بينه وبين أداء واجبه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون * إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون^(١).

(١) سورة التوبة الآيات ٩١ - ٩٣.

ومن هنا كان تخلف الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، نكولاً عن أداء الواجب المفروض على كل قادر في الأمة، وتقاعداً عن نصرة الجماعة التي يتسبون إليها، وخوفاً وتميئاً في الساعة الحرجة والوقت العصيب؛ فكان لا بد أن يُكشَف أمرهم للجماعة حتى لا تنخدع بهم بعد ذلك، وكان لابد أن يُؤدَّبوا الأدب الذي يردعهم ويردع أمثالهم حتى يرعَوْوا؛ فلما أن يتوبوا ويرجعوا إلى صفوف الجماعة إن كانت فيهم صلاحية للبقاء، وإما أن تفرغ الجماعة من أمرهم وتنبذهم نبذ الغنَّاء فلا هم منها ولا هي منهم .. "فالذين يَضْعُفُونَ ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف، وقايةً له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير"^(١).

كانت حملة القرآن قاسية على الذين قعدوا
عن الخروج لنكولهم عن أداء أقدم واجب

من أجل ذلك حمل القرآن الكريم على الذين تخلفوا في
هذه الغزوة حملة شديدة، وقسا عليهم قسوة بالغة، فلامهم

(١) في ظلال القرآن.

ووبخهم، وقرعهم أشد القرع، وفضحهم أشد الفضيحة،
وطعنهم في أعز ما يعتز به الرجال ذوو الكرامة والحسب...
وصفهم بالخسة وسقوط الهمة وتفاهة الغرض، وأنهم
لا ينشطون إلا للمنافع العاجلة والأغراض الزائلة؛ أما جلائل
الأعمال وعظائم الأمور، فليسوا من أهلها ولا طلابها ﴿لَوْ كَانَ
عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيُخْلِفُونُ بِاللَّهِ: لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*... وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ
فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ﴾^(١).

وعيرهم بالجبن والخور والعجز والخمول، وأنهم ليسوا من
ذوى الغناء عند الشدة، ولا من أولى النجدة عند الخطر،
يُشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة
الرخيصة على الكفح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على
الخطر العزيز: ﴿وَيُخْلِفُونُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا
لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ*... وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نْكُنْ

(١) سورة التوبة الآيات ٤٢ - ٥٨.

مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(١).

وَيُنَّ لِلْجَمَاعَةِ أَنَّهُمْ فِيهَا فساد ورجس، وأن قعودهم كان خيراً لها من خروجهم، وأن سلامتها في أن تطهر صفوفها منهم، لأنهم لا يؤمنون بأهداف الجماعة ولا يشاركونها مشاعرها، ولأنهم فيها من عوامل الهدم لا من عوامل البناء : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ.. سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(٢).

(٢) سورة التوبة الآيات ٤٦ - ٩٦.

(١) سورة التوبة الآيات ٥٦ - ٨٧.

هكذا كان شأن القرآن مع المنافقين وطلاب المنفعة، من المتخلفين عن صفوف الجماعة.. حَقَّرهم وهَوَّن من شأنهم، ووضعهم حيث وضعوا أنفسهم مع الخولاف من النساء والصغار والعجزة والضعفاء، وكشف أمرهم للجماعة وحذرهم من أخاديعهم، وأمرها بالإعراض عنهم.. فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون أعرض عن عتابهم، وقبل منهم ظاهر عذرهم، ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه.

أما الذين قعدوا فتورًا وكسلا فقد قبل الله توبتهم أما الذين ركنوا إلى التراخي واستناموا إلى الفتور، كسلا وميلا إلى الدعة، واسترواها للظلال في حر الهجير، لم يدفعهم إلى ذلك شك ولا ارتياب، ولم يَدْعُهُمْ إليه كيد ولا نفاق.. فهؤلاء قَبِلَ الله توبتهم، وأذن لرسوله في العفو عنهم، وأمره أن يتقبل منهم بعض أموالهم، تطهيرًا لنفوسهم، وإيذانًا بقبولهم في صفوف الجماعة، وأن يُطْمَئِنَّ خوفهم بدعوته لهم، ويسكن نفوسهم بصلواته عليهم، ويرجع من الله العفو عنهم والمغفرة لهم: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خَذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذِ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ * وَقُلْ: اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسُرُّدُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ^(١).

توبة كعب بن مالك وصاحبيه

وكان من المتخلفين ثلاثة صدقوا رسول الله ﷺ فلم يخلتقوا
أعذاراً ولم يزيفوا قولاً، فأرجأ النظر في أمرهم حتى يقضى الله
فيهم بما يشاء: هم هلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع،
وكعب بن مالك. وفي قصة كعب بن مالك - كما رواها عنه
غير واحد من الرواة - صورة بالغة من النفس الحساسة المؤمنة
في صدقها وصراحتها، وفي ضيقها وحيرتها، وفي نجاتها وفرحتها،
وفي إخلاصها وتوبتها؛ وصورة أخرى من المجتمع الإسلامي في
ارتقاء وعيه وسمو إدراكه، وشدة إحساسه بذنب المذنب وتوبة
التائب.

كعب يخلد إلى الراحة

قال كعب بن مالك: «... كان من خبري حين تخلفت
عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قَطُّ أقوى

^(١) سورة التوبة الآيات ١٠٢ - ١٠٥.

ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة : والله ما جمعتُ
عندي قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة. ولم يكن
رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك
الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً
بعيداً ومفاوز وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبةً
غزوهم، أخبرهم بوجهه الذي يريد. والمسلمون مع رسول الله
كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما رجل يريد
أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى
من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار
والظلال.. وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطَفِقَتْ أَعْدُو
لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسى : أنا
قادر على ذلك إن أردت. فلم يزل يتأذى بى حتى تَكَمَّرَ بالناس
الجَدُّ^(١)، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض
من جهازى شيئاً؛ فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق
بهم. فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فلم أقض شيئاً، ثم غدوت
ثم رجعت ولم أقض شيئاً؛ فلم يزل يتهاذى بى حتى أسرعوا

(١) شمر الجد : فرغوا من استعدادهم وتأهبوا للسير.

وَتَفَرَّطَ الْغَزْوُ^(١)، وَهَمَّتْ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَدْرِكُهُمْ - وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ - فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ؛ فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْزَنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا^(٢) عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَّرَ اللَّهُ مِنَ الضَّعَفَاءِ. وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرَهُ فِي عِطْفَيْهِ»^(٣) فَقَالَ مَعَاذَ بَنِي جَبَلٍ: «بَشْ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَنْهُ إِلَّا خَيْرًا»! فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ كَعْبُ: فَلَمَّا بَلَغْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي هَمِي، وَطَفِيفَتُ أَتَذْكُرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أُخْرِجَ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعْنَتْ عَلَيَّ ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِ... فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظْلَ^(٤) قَادِمًا رَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجَمَعْتُ صِدْقَهُ. وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَادِمًا؛ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ

(١) بمعنى ضاعت الفرصة في تداركه.

(٢) مغموصاً عليه: متهمًا بالنفاق.

(٣) أى شغله إعجابه بنفسه عن الخروج.

(٤) اظلل: قرب.

للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ عَلاَنِيتَهُمْ، وبإيعامهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.. حتى جثت.

كعب يصدق النبي في اعتذاره

فلما سلمت عليه تبسم تبسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثم قال: «تعال».. فجثت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال لي: «ما خلَّفُكَ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟» قلت: «بلى والله، وإنى - والله يا رسول الله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سَخَطِهِ بعدر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا^(١) ولكنى - والله - علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تجد^(٢) عليّ فيه، إنى لأرجو فيه عُقْبَى اللهِ^(٣).. ولا - والله - ما كان لى من عذرا! والله ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنك»!

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد

(١) أعطيت جدلا: قدرة على سبك الكلام وحسن التخلص.

(٢) تجد: تغضب.

(٣) عقبى الله: عفوه ومغفرته بعد.

صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فقامت؛ وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعون، فقالوا لى: "والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا؛ لقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون؛ فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله، صلى الله عليه وسلم"، فوالله ما زالوا يُؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذب نفسى؛ ثم قلت لهم: "هل لقى هذا معى أحد؟" قالوا: "نعم، رجلان قالاً مثل ما قلت، فليلهما مثل ما قيل لك". فقلت: "من هما؟" قالوا: "مرارة بن الربيع العُمري، وهلال بن أمية الواقفي". فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، لى فيهما أسوة. فضيت حين ذكرهما لى..

تأديب وتقويم

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه؛ فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.. فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق، فلا يكلمنى أحد. وآتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة،

فأقول في نفسي : "هل حرك شفتيه برد السلام أم لا" ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تَسَوَّرْتُ^(١) حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام؛ فقلت له : "يا أبا قتادة، أنشدك الله تعالى^(٢) : هل تعلم أني أحب الله ورسوله"؟ فسكت؛ فعدت له فنشدته فسكت؛ فعدت له فنشدته فقال : "الله ورسوله أعلم". ففاضت عيناى^(٣) وتولّيت حتى تَسَوَّرْتُ الجدار.

الروم يحاولون استغلال الفرصة للتفريق بين الرسول وأصحابه

قال : فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبِطِيّ من أنباط الشام - ممن قَدِمَ بطعام يبيعه بالمدينة - يقول : "من يدل على كعب ابن مالك"؟ فطفق الناس يشيرون إليّ؛ حتى إذا جاءني دفع إلى كتاباً من ملك غسان، فقرأته فإذا فيه : "أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضِيعَة،

(١) تسوّرت : اقتحمته من فوق السور.

(٢) أنشدك الله : بمعنى استحلفك بالله.

(٣) فاضت عيناى : انهلكت دموعي.

فالحقُّ بنا نواسك". فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء! فتيَّمتُ بها التُّور فسَجَرْتُهُ^(١) بها.. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال: «إن رسول الله يأمرُك أن تعتزلِ امرأتك». فقلت: "أطلقها أم ماذا أفعل؟" فقال: «لا، بل اعتزلها ولا تقرِّبها». وأرسل إلى صاحبيِّ مثل ذلك. فقلت لامرأتى: الحقُّ بأهلك فكروني عندهم، حتى يقضى الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: "يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع"^(٢) وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: «لا، ولكن لا يَقْرُبَنَّكَ». قالت: إنه - والله - ما به من حركة إلى شيء؛ والله ما زال يبكى مذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا". فقال لى بعض أهلى: "لو استأذنت رسول الله في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه"! فقلت: "والله لا استأذن فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وما يدرينى ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟"

(١) سجرته: أشعلت بها النار في الفرن، يعنى أنه أحرقتها فيه.

(٢) ضائع: عاجز عن خدمة نفسه.

بشائر التوبة

قال : فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا. ثم صليت صلاة الفجر صَبَحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا؛ فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله : قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رَحُبَتْ.. سمعت صارخاً أَوْفَى^(١) على «جبل سَلْع» يقول بأعلى صوته : "يا كعب بن مالك، أبشر"^(٢).. فَخَرَزْتُ ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج. وأذن^(٣) رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا.. رَكَضَ^(٣) رجل إلى فرساً، وسعى ساع من أسلم فأَوْفَى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعته ثوبٌ فكسوته إياهما ببشارته؛ والله ما أملك غيرهما يومئذ ! واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفونني بالتوبة، يقولون : "لِيَهْنِكَ توبةُ الله عليك"^(١).. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام

(١) أوفى على : بمعنى جاء مسرعاً.

(٢) آذن : أعلنها للناس.

(٣) ركض : أسرع بها نحوي.

إلى طلحة بن عبيد الله يُهرِّول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره؛ ولا أنساها لطلحة!..
قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك»..! قلت: «أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟» قال: «لا، بل من عند الله»..

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: «يا رسول الله، إن من توبى أن أخلع من مالى صدقةً إلى الله ورسوله»! فقال صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: «فإن أمسك سهمي الذى بخير». ثم قلت: «يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت»..

قال كعب: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلاي؛ ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذباً، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى!.. وأنزل الله تعالى على رسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ

عليهم إِنَّهُ يَهْمُ رُءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ يَمُّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ^(١).

”هذه هي قصة الثلاثة الذين خُلِفُوا كما رواها أحدهم كعب بن مالك، وفي كل فقرة منها عبرة؛ وفيها كلها صورة بارزة الخطوط من المجتمع الإسلامي ومثانة بنيائه وصفاء عناصره، ونصاعة تصوره لمعنى الجماعة، ولتكاليف الدعوة، ولقيمة الأوامر، ولضرورة الطاعة...“

صورة من روح المجتمع الإسلامي

يمثل هذه الروح انتصر الإسلام، ويمثل هذه الروح عزت كلمته.. فلنتظر أين نحن الآن من هؤلاء السلف، ولننظر أين روحنا من روح تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر؛ وإلا، فلنُسَدِّدْ وَلْتَقَارِبْ، ولنحاول جُهد طاقتنا، والله المستعان^(٢).

(١) سورة التوبة الآيات ١١٧ - ١١٩، وقد اخترنا في سرد هذه القصة رواية النويرى هاية الأرب مع الاستعانة في بعض العبارات بالروايات الأخرى.

(٢) في ظلال القرآن، مع بعض التصرف.

براءة

الحق الطبيعي لكل أمة أن تحمي شعبها
من كل ما يعارض عقائدها وتقاليدها
وأن تطهر أرضها من كل أعدائها

أيجوز أن تقيم في أرض الدولة طوائف من الناس
لا يخضعون لسلطان الدولة؟ أم يجوز أن تعيش دولة في قلب
دولة أخرى بحيث تتعارض قوانين هذه مع قوانين تلك، وبحيث
تتضارب العقائد والتقاليد في كلتا الدولتين؟

إن الأساس الطبيعي في تكوين الدول أن يكون لكل أمة
وطنها الخاص بها، وأن يكون هذا الوطن ملكاً خالصاً لأبنائها،
يعيشون فيه أحراراً، لا يعارضهم معارض في عقائدهم ولا في
تقاليدهم.

على هذا الأساس الطبيعي قامت دولة الإسلام في جزيرة
العرب، فقد أخذت - بعد أن خضعت لها مكة أم القرى،
وبعد أن دانت لها العرب سكان الجزيرة - تتخذ الجزيرة قاعدة

لها، وتفرض عليها مبادئها وقوانينها، وأصبح من حقها - بل من واجبها - أن تحمي شعبها من كل ما يعارض هذه المبادئ والقوانين، وأن تطهر أرضها من كل من يخالفها في العقيدة والتقاليد.

وعقيدة الإسلام هي الإيمان بالله وحده لا شريك له، وعقيدة المشركين هي الإيمان بالله وبغيره من الشركاء والأنداد. والإسلام إنما جاء لإبطال هذه العقيدة من أساسها، وإبطال ما يقوم عليها من تقاليد؛ فكان بقاء أى أثر من آثارها أو من تقاليدها في قلب الوطن الإسلامى شيئاً غير طبعى، وأمرًا يعتبر السكوت عليه في الوضع الدولى شذوذاً لا يقره قانون ولا يقبله منطق.

وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يأتوا إلى البيت ليحجوا، وكان من تقاليد حجهم أن يطوف رجال منهم عراة ليس على أحد منهم ثوب يستره.. يعظمون بذلك حرمة البيت، ويقول أحدهم: أطوف بالبيت كما ولدتنى أمى، ليس على شيء من الدنيا خالطه الظلم. وهو أمر لا يتفق مع مبدأ الإسلام من ضرورة سترة العورات، وحماية الإنسان من كل مظاهر الإباحية والتبذل. كذلك كان البيت الحرام - وهو البيت الذى بنى لعبادة الله وحده، والذى كان أول بيت وضع للناس على أنساس

التوحيد الخالص - لا يزال يحج إليه من لا يؤمن بالله وحده، ولا يزال يطوف به من يشرك بالله غيره من الأنصاب والأزلام، ومن لا يزال يؤمن بعقائد الجاهلية وتقاليدها.

فكان من غير الطبيعي أن يتقاسم التوحيد والشرك هذا البيت، وأن يطوف به المسلمون والمشركون في وقت معاً؛ كما كان من غير الطبيعي أن يعيش في الوطن الإسلامي طوائف من الناس لا يؤمنون بمبادئه ولا يخضعون لسلطانه؛ كذلك كان من غير الطبيعي أن تظل هذه الطوائف مقيمة في أرض الإسلام وهي عناصر معادية للإسلام وأهله، ظلت دهرها تناصب المسلمين العداوة، وتتحين فيهم الفرصة، ولا تزال تترصد بهم الدوائر حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

كان بقاء هذه العناصر في أرض الإسلام أمراً غير مأمون العواقب، كما كان في الوقت نفسه شيئاً غير طبيعي في تكوين الأمم؛ فكان لا بد من تصحيح هذا الوضع حتى يتفق مع الوضع الطبيعي، فإما أن تؤمن هذه الطوائف بمبادئ الإسلام وتخضع لسلطانه، وإما أن تخرج إلى أرض غير أرضه؛ فإن لم يؤمنوا أو يخرجوا كان للدولة الإسلام أن تذرهم، وكان لها بعد إنذارهم أن تستعمل حقها في استخدام القوة، حتى تخضعهم لسلطانها أو تخرجهم من أرضها؛ وهذا ما كان من موقف

الإسلام مع شراذم العرب الذين ظلوا على شركهم في جزيرة العرب.. ذلك أن قبائل العرب أخذت - بعد عودة رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - تفد على المدينة من أنحاء الجزيرة معلنة إسلامها وانضواءها تحت راية الإسلام، حتى أسلمت الجزيرة كلها، فلم يبق على شركه فيها إلا شراذم قليلة، وأوزاع متفرقة في نواحيها.

لم يكن من الطبيعي أن تتضارب العقائد حول البيت الحرام وأن يظل المشركون يحجون إليه

فلما أقبل موسم الحج من السنة التاسعة، اجتمع المسلمون والمشركون حول البيت يؤدون مناسك الحج، وكانوا يجتمعون منذ فتح مكة في كل موسم، وكل يؤدي مناسكه بحسب تقاليد عقيدته؛ المسلمون يؤدونها كما علمهم الإسلام، والمشركون يؤدونها على تقاليد الجاهلية الأولى.. المسلمون يطوفون مستورين، متجملين بكل ما يليق بقداسة المكان وكرامة الإنسان؛ والمشركون يطوفون مكشوفين، متحللين من الأوضاع الكريمة والآداب اللائقة.. المسلمون يلبون قائلين: «لبك اللهم لبك، ليك لا شريك لك»، والمشركون يلبون قائلين: «لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».. المسلمون يهللون ويكبرون، والمشركون يصفقون ويصفقرون..

عقائد متضاربة، وتقاليد متناقضة، وفوضى لا تليق بكرامة دولة، ولا تناسب وحدة أمة، ولا تتفق مع الغرض الأساسى من حج هذا البيت، وهو اجتماع الناس فى هذا المكان الواحد، على أساس من المحبة والألفة والوفاق، يعبدون رباً واحداً، وَيُنْسِكُونَ نُسْكَاً واحداً، ويدينون بدين واحد؛ وتجمع بينهم مظاهر الوحدة فى العقيدة والشعور، وفى المظاهر والأشكال، وفى العادات والتقاليد.. إنه الاجتماع المسمى الذى تعقده أمة الإسلام فى عاصمة الإسلام، لتدعيم الروابط بين جماعاتها وطوائفها، ومزج عناصرها المختلفة فى مزاج يوائم بينها، ويجعلها أمة واحدة متماسكة البنيان وثيقة العرى.. فكيف يمكن أن يتسنى لها ذلك وبين ظهرانيتها هذه العناصر الغربية؟

كان من الضرورى إذن لأمن الدولة وسلامة أغراضها، أن تحدد موقفها إزاء هذه العناصر الغربية عنها، وأن تصحح وضعها معها على النحو المألوف فى كل دولة.. فلما كان موسم الحج من هذه السنة، نزل الوحي على رسول الله ﷺ بصدر سورة «براءة» يحدد موقف المسلمين من بقايا المشركين فى جزيرة العرب، ويضع الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء.

الوحي يحسم الموقف بنزول سورة براءة

قال الله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ * فإذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلواهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ * وإن أخذ من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ *

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ؟ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى

قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ
إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّوُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *
وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
أَيَّمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ *

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ؛
وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ *
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ

والله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ
اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ * قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ
بِمَا رَحِبْتُمْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ

الله مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنْ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١).

وفي هذه الآيات يعلن الوحي براءة الله ورسوله من هؤلاء المشركين، وينذرهم بنذ ما بَيْنَهُمْ وبين المسلمين من عهد الأمان والسلام، ويترك لهم المهلة الكافية ليتدبروا أمرهم ويحددوا موقفهم؛ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوان المسلمين، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أصروا على الشرك وهم في أرض الإسلام؛ فالويل لهم والخزي والعذاب الأليم؛ وعلى المؤمنين أن يملئوها عليهم خيلا ورجالا، وأن يشنوها عليهم حربا شعواء لا هودة فيها ولا رحمة، وأن يقطعوا كل ما بينهم وبينهم من صلات المودة وشائج القرى، لأنهم عناصر فوضى واضطراب، وأهل غدر وخيانة، يشهد ماضيهم على أعمالهم ويدل على نواياهم، فليسوا أهلا لأن يؤمنوا على الإقامة بين المسلمين، ولا أن يعمروا مساجد الله وهم كافرون. ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

وتمضي الآيات في تحريض المسلمين على جهاد

(١) سورة التوبة الآيات ١ - ٢٨.

المشركين، وتذكركم بمواقف النصر التي أيدهم الله بها، ثم تنتهى بهذا القرار الحاسم الجازم.. ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. وينتهى تحديد العلاقة بين المعسكرين تحديداً فاصلاً واضحاً لا رجعة فيه ولا تردد.

أمير الحج ينادى بها في الناس

وكان رسول الله ﷺ قد بعث أبا بكر أميراً على الحج في هذا الموسم؛ فلما نزلت هذه الآيات عليه بعد انصراف أبي بكر، بعث في أثره بها علي بن أبي طالب، ليعلنها على الناس في يوم الحج الأكبر.

روى محمد بن إسحاق أنه «لما نزلت «براءة» على رسول الله، صلى الله عليه وسلم - وكان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس - دعا علياً فقال: «اذهب بهذه القصة من سورة براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته». فخرج علي على ناقه رسول الله العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق؛ فلما رآه أبو بكر قال: «أمير أو مأمور؟»

فقال : « بل مأمور ». ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج في تلك السنة، على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية؛ حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذّن في الناس، بالذي أمره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال : « ياأيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته ». فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان هذا براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى ».

ترك الإسلام للمشركين الفرصة الكافية بعد إنذارهم

« لقد اختير يوم جامع حافل - يوم النحر بمنى - حيث يجتمع الحجاج من كل فج، ويتلاقى الناس من كل واد... اختير هذا اليوم الجامع الحافل، ليعلن الإسلام على رؤوس الأشهاد نبذ عهود المشركين إليهم، وإعلان الحرب العامة عليهم؛ فلم يُبَيِّتْهم الإسلام غدراً، ولم يأخذهم بغتة، ولم يجازهم على نقض عهودهم معه بأخذهم على خلسة وهم غافلون، إنما أنذرهم علانية ثم أعطاهم مهلة كافية... أربعة

أشهر لمن كان له عهد عام غير محدد، ونهاية الأجل لمن كان له عهد معلوم.. أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض ينظمون أمورهم ويدبرون أحوالهم؛ من كانت له تجارة صفاها، ومن كان له دينٌ تقاضاه، ومن كانت له صلات دبرها، ومن كان مسافراً عاد، ومن كان يهتم بسفر حسب حساب الحالة الجديدة في العلاقات.. إنه العدل مع الخصوم والشرف مع الأعداء، والنظافة والنصاعة، والأفق الكريم الوضئ الذي لم يبلغه إلا الإسلام..

«كان ذلك فيما يتعلق بمشركى الجزيرة وحدها، باعتبارها مهد الإسلام ومَحْضَنُهُ، وقاعدة الدعوة ومثابة العقيدة؛ فأما المشركون خارجها، فالأمر بينهم وبين الأمة المسلمة ألا يقفوا بالقوة في سبيل الدعوة الإسلامية، وألا يفتنوا المسلمين عن دينهم؛ وألا يقاتلوا المسلمين أو يظاهروا عليهم أو يخرجوهم من ديارهم»^(١).

موقف الإسلام من أهل الكتاب

وكما حدد الوحي موقف المسلمين من المشركين الذين يعيشون في أرض الإسلام حدده كذلك من أهل الكتاب الذين

(١) في ظلال القرآن.

يعيشون فيها أو يحيطون بأطرافها؛ فأما المشركون فليس لهم أن يسكنوا المسلمين في مساكنهم أو يعاشروهم في أوطانهم، ولا بد للمسلمين أن يقاتلوهم حتى يسلموا أو يُقتلوا أو يخرجوا من الأرض؛ وأما أهل الكتاب فلا بأس من أن يسكنوا المسلمين في أوطانهم ويخالطوهم في معاشهم، على أن يكون الأمر بينهم وبين المسلمين قائماً على السلم والأمن ورعاية حق للجوار، فإن بدا للمسلمين منهم ربح غدر أو محاولة فتنة أو اعتداء، كان لهم أن يقاتلوهم حتى يَخْضُدُوا شوكتهم ويخضعوهم لسلطانهم..

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(١).

«فوصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم بأربع صفات سلبية، هي علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم للحكمه في داره، لأن إقرارهم على الاستقلال وحمل السلاح يُفَضِي إلى قتال المسلمين في دارهم، أو مساعدة من يهاجمهم فيها،

(١) سورة التوبة الآية ٢٩، والجزية: ضريبة مالية تفرض على الأشخاص لا على الأرض.

كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبی إياهم ومخالفته لهم..

«وَيُنِ الْغَايَةِ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا الْقِتَالُ إِذَا كَانَ الْغَلَبُ لِلْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أَيْ قَاتِلُوهُمْ عِنْدَ وَجُودِ مَا يَقْتَضِي وَجُوبَ الْقِتَالِ، كَالْاِعْتِدَاءِ عَلَيْكُمْ أَوْ عَلَى بِلَادِكُمْ، أَوْ اضْطِهَادِكُمْ وَفَتْتِكُمْ عَنْ دِينِكُمْ، أَوْ تَهْدِيدِ أَمْنِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ - كَمَا فَعَلَ الرُّومُ فَكَانَ سَبَبًا لَغَزْوَةِ تَبُوكَ - حَتَّى تَأْمِنُوا عِدْوَانَهُمْ بِإِعْطَائِكُمُ الْجِزْيَةَ فِي الْحَالِ الْلَّذِينَ قُيِّدَتْ بِهِمَا.. فَالْقَيْدُ الْأَوَّلُ لَهُمْ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنْ يَدٍ: أَيْ عَنْ قُدْرَةٍ وَسَعَةٍ فَلَا يُظْلَمُونَ وَلَا يُرْهَقُونَ؛ وَالثَّانِي لَكُمْ، وَهُوَ الصَّغَارُ الْمُرَادُ بِهِ خَضُّ شَوْكَتِهِمْ وَالْخُضُوعُ لِسَيَادَتِكُمْ وَحُكْمِكُمْ... وَبِهَذَا يَكُونُ تَيْسِيرُ السَّبِيلِ لَاهْتِدَائِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِمَا يَرُونُ مِنْ عَدْلِكُمْ وَهِدَايَتِكُمْ، وَفَضَائِلِكُمُ الَّتِي يَرُونَكُمْ أَقْرَبَ بِهَا إِلَى هِدَايَةِ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْهُمْ. فَإِنْ أَسْلَمُوا عَمَ الْهَدَى وَالْعَدْلَ وَالْاِتِّحَادَ، وَإِنْ لَمْ يَسْلَمُوا كَانَ الْاِتِّحَادُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بِالسَّوَادَةِ فِي الْعَدْلِ، وَلَمْ يَكُونُوا هُمْ حَائِلًا دُونَهُمَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ..

«وَمَتَى أُعْطُوا الْجِزْيَةَ وَجِبَ تَأْمِينُهُمْ وَحِمَايَتُهُمْ وَالِدَفْعُ عَنْهُمْ، وَحَرِيَّتُهُمْ فِي دِينِهِمْ بِالشَّرُوطِ الَّتِي تَعْقِدُ بِهَا الْجِزْيَةَ،

ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين؛ ويحرم
ظلمهم وإرهابهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين؛ ويسمّون
أهل الذمّة، لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله
ورسوله^(١).

* * *

هكذا حدد الإسلام موقفه من المشركين ومن أهل
الكتاب، الذين يعيشون في أرض الإسلام أو يلاصقونها؛ فهل
يعتبر هذا تعسفًا من الإسلام، يريد به أن يتحكم في حرية
الناس، أو يرغمهم على اعتناقه؟ أم هو نوع من الاحتياط
الواجب، الذي تقوم به كل دولة لحماية أرضها والذود عن
مبادئها؟

(١) تفسير النار.

حجة الوداع

وفود العرب تفد على المدينة

كان للصيحة التي نادى بها على يوم الحج الأكبر أثرها الطبيعي في بقايا المشركين من العرب في الجزيرة العربية، فقد أحس هؤلاء بعد أن أسلمت الجزيرة أنهم أصبحوا كالشُّجَا في الحَلَق، أو كالشذوذ في القاعدة، وأنهم إن ظلوا مقيمين على شركهم فلا بد أن تكتسبهم قوة الإسلام كما يكتسح السيل الغُثَاء، وأن من الخير لهم أن يدخلوا مع الداخلين تحت راية الإسلام، فَيَحِقُّنَا بذلك دماءهم ويحموا مصالحهم، ويستمتعوا بما يستمتع به أتباع هذا الدين من مظاهر الرحمة الشاملة، التي لا يستمتع بها فرد دون فرد، ولا يحتكرها قوى دون ضعيف.

كذلك أحس أهل الكتاب من نصارى العرب بما أحسَّ هؤلاء المشركون ورأوا أن من الخير لهم أن يستظلوا براية الإسلام ويحتموا بحمايته، فأقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء على

المدينة، تعلن خضوعها للإسلام ودخولها تحت لوائه.. فأما المشركون فأسلموا ودخلوا في زمرة المسلمين، وأما أهل الكتاب فمنهم من أسلم فدخل في زمرة المسلمين، ومنهم من بقى على دينه ورضى بأن يدفع الجزية، فدخل بذلك في أمان المسلمين وحمايتهم.

الرسول يكرم الوفود ويجاريها في بعض عاداتها

وكان رسول الله ﷺ يستقبل هؤلاء الوفود مغتبطاً بمقدمها، فيضيئها ويكرمها، ويُنزلها على الرحب والسعة في دور الضيافة بالمدينة، ويبسط لها كل ما تريد أن تقف عليه من أمور الإسلام، ثم يترك لها الخيار في أن تُسلم أو لا تسلم. فإذا أسلمت بايعها على الإسلام، وأقطعها أرضها وبلادها، وأمر عليها واحداً منها أو رد عليها أميرها إن كان أهلاً للإمارة، حتى إذا ما آذنت بالرحيل إلى بلادها أجازها وودعها، وبعث معها رسولا يفقهها في دينها، أو كتب لها كتاباً بما لها وما عليها، وما ينبغي أن تعلمه من شرائع الإسلام وسُنَّته.

وكان صلى الله عليه وسلم يتلطف مع الوفود فيجاريها في بعض عاداتها، ويتجاوز عما يبدر من بعض هفواتها التي يدفع إليها جفاء البداوة وخشونة الجاهلية؛ فقد جاءه وفد تميم في وقت

الظهير، وكان صلى الله عليه وسلم قائلاً^(١) في بيت من بيوته، فوقفوا في المسجد ينادونه من وراء الحجرات : « يا محمد، اخرج إلينا ».. وظلوا يصيحون به حتى آذاه صياحهم، ولكن ذلك لم يمنعه أن يخرج إليهم، وأن يسايرهم فيما طلبوا إليه من المفاخرة - جرياً على عادة العرب - فأذن لخطيبهم وشاعرهم أن يقولوا، ثم رد عليهما بشاعر وخطيب من المسلمين حتى أفحمهم، وحتى قال قائلمهم : « إن هذا الرجل لُمؤن له.. كخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولهم أحلم منا ».. ثم لم يمنعه ذلك أن يُجيزهم^(٢) عند رحيلهم كما كان يجيز غيرهم من الوفود.

الرسول لم يكن يتسامح في شيء قط مما يعارض مبادئ الإسلام أو تقاليده

على أن رسول الله - وإن تجاوز عن كثير من هفوات الوفود - لم يكن يسمح قط بأن يتعارض هذا التجاوز مع مبادئ الإسلام وعقائده؛ فقد أراد وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من أداء الصلاة، فأبى عليهم ذلك كل الإباء، فقبلوا أن يؤدوا الصلاة على أن يترك لهم « السلات » لا يبدمها ثلاث

(١) القائل : المستكن من آخر في وقت القيلولة.

(٢) يجيزهم : يعطيهم الجوائز.

سنين، فأبى عليهم، فقالوا: سنة.. فأبأها عليهم، فلما برحوا يسألونه حتى سألوه شهراً واحداً، فأبى أن يدعها لهم أجلاً مسمى. فلما رأوا إصراره على هدمها سألوه أن يكفيهم مثونة هدمها بأنفسهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما كسر أوثانكم بأنفسكم فسنة عليكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه». ثم وجه معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، فقاما بهدم اللات بين صراخ النساء وبكائهن.

وجاء وفد بني حنيفة ومعهم مُسَيْلِمَةُ الكذاب يدعى النبوة ويقول: «إن ترك لي الأمر من بعده اتبعته». فأقبل رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريدة حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال له: «إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتها». فلما عاد مسيلمة إلى بلاده كتب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، أما بعد، فإنني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

كذلك جاءه وفد من نصارى نجران يجادلونه في شأن عيسى عليه السلام، فجعل رسول الله ﷺ يناقشهم ويبسط لهم ما أنزل الله تعالى عليه في شأن عيسى. فلما رأى أنهم لا يبيغون إلا الجدل دعاهم إلى المباحلة، وخرج إليهم ومعه ابنته فاطمة وزوجها علي وابناهما الحسن والحسين، وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم، ثم يقفوا جميعاً، ويبتهلوا إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين من الفريقين. فلما رأوا منه ذلك خافوا على أنفسهم أن تنزل بهم نعمة الله فتستأصلهم، لأنهم يعلمون أن محمداً على الحق وأنهم على الباطل، وصالحوه على أن يدفعوا الجزية، ويظلوا على دينهم.. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١).

وكما لم يتجاوز رسول الله ﷺ عن شيء مما يعارض عقيدة الإسلام، لم يتجاوز عن هفوة مما يعارض تقاليده، فقد جاءه وفد كِنْدَةَ في ثمانين راكباً، فدخلوا عليه المسجد وقد رجّلوا

(١) سورة آل عمران الآيات ٥٩ - ٦١.

لِمَهُمْ^(١) وتكحلوا ولبسوا ثياب الحرير. فلما رآهم رسول الله ﷺ في هذا المظهر الناعم قال لهم: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى. قال: «فما هذا الحرير في أعناقكم؟» فشقوه وطرحوه عن أجسامهم.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعالج فساد التقاليد والعادات، كما يعالج فساد العقائد، حتى يكون المسلم مثلاً كاملاً في ظاهر أمره وباطنه.

رسل النبي إلى القبائل

وظلت الوفود طَوَالَ السَّنة العاشرة تفد على المدينة من أنحاء الجزيرة، فتعلن دخولها في الإسلام أو تعلن ولاءها ورغبتها في أن تستظل بظله. فيبايع رسول الله ﷺ من يسلم منهم على الإسلام، ويتقبل ولاء من يوالى الإسلام ويدخل في حمايته من أهل الكتاب؛ ويبعث الرسل من أصحابه إلى القبائل في منازلتها، يفقهونهم في الدين ويعلمونهم السنن والشرائع، كما يبعث معهم المصدِّقين يجمعون الصدقات من المسلمين ويجمعون الجزية من أهل الذمة.

وانقضت السنة العاشرة في استقبال الوفود، ومضت أيامها

(١) اللمة: مجتمع شعر الرأس. وترجيل الشعر: تربيجه.

هادئة لا يعكر صفوها شغب ولا نزاع. إلا ما كان من قبيلة
 باليمن ظنت أنها تستطيع أن تقاوم التيار، فأرسل إليها رسول الله
 ﷺ من أخضعها من أصحابه. وهكذا جاء نصر الله والفتح،
 ودخل الناس في دين الله أفواجاً وتمت كلمة ريك الحسنى على
 جزيرة العرب، فصارت أرضها مباءة الإسلام ومُحَضَّنَه، وصارت
 عاصمتها كعبة المسلمين وقبلتهم.

اجتماع المسلمين من أنحاء الجزيرة ليأتوا بالرسول في مناسك الحج

كان لا بد - وقد خلصت مباءة الإسلام للإسلام - أن
 يجتمع المسلمون من أقاصى الجزيرة وأدانيها في عاصمتهم،
 ليعقدوا أول مؤتمر خالص لهم. وكان لا بد أن يكون هذا المؤتمر
 الجامع تحت زعامة رسولهم ومرشدهم، ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا
 بنوره، ويأخذوا عنه مناسكهم، وليكون هذا المؤتمر نموذجاً لهم
 يسرون على مناجه، فيما يعقدون بعد ذلك من مؤتمراتهم حول
 البيت العتيق، وفيما يعقدون عدا ذلك من مؤتمرات أخرى في
 غير هذا المكان، لتوحيد كلمتهم، وجمع شتاتهم، وسد ما تحدته
 الفتن والأيام من ثغرات في صفوفهم.

كان لا بد للمسلمين من هذا الاجتماع، وكان لا بد أن يتلقوا

أصوله وقواعده عن رسول الله ﷺ وأن يسمعوها منه كلمة جامعة عن هذا الدين الذي جاءهم به، يتعرفون بها حقائقه ويتفهمون أغراضه، ويتخذونها دستوراً لهم في حياتهم، وجُنة يعتصمون بها عند الزلل، ويستترشدون بها عند الضلال.

من أجل ذلك عزم رسول الله ﷺ على أن يحج بالمسلمين في عامه ذاك. فلما أهل ذو القعدة أذن في الناس بالحج وأخذ يتجهز له، فأخذ الناس يتجهزون ويفدون على المدينة من كل صَوْب، حتى اجتمع بها خلق كثير لا يكاد يحصيهم العد، قيل: إنهم تسعون ألفاً، وقيل: مائة وأربعة عشر، وقيل: أكثر من ذلك. وقد أقبل هذا العدد الكثير من مشارق الأرض ومغاربها، ومن أقاصى الجزيرة وأدانيها، ليأتوا برسول الله ﷺ ويأخذوا عنه مناسك حَجِّهم وعُمَرَتهم. وكان هناك في مكة جموع من المسلمين لا يقلون في عددهم عن جموع المدينة، ينتظرون كذلك أن يأتوا برسول الله ويعملوا بعمله.

فلما تجهز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج من المدينة ظهر يوم السبت، لخمس ليالٍ بَقِيْنَ من ذى القعدة سنة عشر، ومعه أزواجه وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأخلاط الناس، وساق من الهدى مائة بَدَنَةٍ. فلما وصل إلى ذى الحليفة صلى بها العصر صلاة

المسافر، وأحرم بالحج والعمرة في إزار ورداء صُحارَيْن^(١) - وقيل: أحرم بالحج مفردًا - ثم دعا بالهدى فأشعره وقلّده، وأمر من كان معه هدى أن يُهلّ كما أهل^(٢)، ففعل الذين ساقوا الهدى معهم كما فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ركب السلام

وركب رسول الله ﷺ ناقته، فلما استوى عليها وهمت به قائمة أهل ملَبِّيّا: «لَيْكَ اللَّهُمَّ لِيكَ.. لِيكَ لا شريك لك لِيكَ.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك»!! فصاح الناس يلون عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه، وتجاوبت الأصداء بأصواتهم تدوى في الفضاء الواسع، وانطلق الحشد الكبير يقطع الصحراء سعيًا إلى مكة، وسالت الأودية والروابي بمجموع لا يحدها الطّرف، يحدها الشوق ويدفعها الحنين إلى البيت العتيق. وكلما صعدوا شرفًا من الأرض أو هبطوا واديًا، أو نزلوا منزلا، أو صلّوا صلاة، أو لقّوا ركبًا، أو رأوا

(١) نسبة إلى صُحار، إحدى بلاد اليمن. وقد يكون نسبه إلى الصُّخر، وهو غُبيرة في بياض يميل إلى الحمرة كلون «الدمور» الآن.

(٢) أصل الإهلال أن يرفع الحاج صوته بالتلبية، ثم استعمل بمعنى الإحرام بالحج أو بالعمرة، وذلك لأن المهرم يرفع صوته بالتلبية بمجرد إحرامه.

مظهرًا من مظاهر الطبيعة.. انطلقت أصواتهم تَعِجُّ بالتلبية وتُهلّ بالتوحيد.

هكذا انطلق الركب العريض يسير سير المطئن الآمن، الذى يبغى الطمأنينة والأمن لكل شىء، ونَشْدُ السلام والوثام لكل حى.. انطلق يسير وشعاره الأمان والسلام لكل ما فى الوجود، فهو لا ينوى غدرًا بأحد، ولا يضمّر شرًا لخلق وهو من أجل ذلك لا يحمل سلاحًا، ولا يؤذى حيوانًا ولا يهيج طيرًا، ولا يعْضُدُ^(١) شجرًا، ولا يتلف زرعًا، ولا ينال أحدًا من خلق الله بالأذى والشر.

هذا ركب السلام فى الأرض، يسير فيها آمنًا مطمئنًا، وينشد الطمأنينة والأمن لكل ما حوله، فالحيوان حوله آمن، والطير حوله آمن، والشجر حوله آمن، والناس حوله آمنون.. والهدف الذى يرمى إليه هو الأمان والسلام، والغاية التى يسعى إليها هى التضامن والوثام، والطابع الذى يتسم به هو الأخوة المتجانسة، التى تساوت فيها الرءوس، وتجاوبت النفوس، وتوحدت الأهداف، وتمثلت المقاصد.. هو الأخوة الكريمة، التى تجردت عن نوازع الشهوات، وترفعت عن فوارق الطبقات، فلا

(١) لا يعضد: لا يقطع.

رَفَتْ ولا فُسُوق، ولا جدال ولا خصام، ولا أسود ولا أبيض،
ولا غنى ولا فقر.. هو الأخوة الخالصة في الله، أساسها المحبة،
وزادها التقوى، وغايتها رضوان رب العالمين.

* * *

على هذا الأساس ظل الركب يسير، وإلى هذه الغاية ظل
يسعى، حتى قطع الطريق إلى مكة، فوصلها في غروب اليوم
الرابع من ذى الحجة، فبات رسول الله بذي طُوًى، ثم أصبح
فاغتسل ودخل مكة نهاراً. فلما رأى رسول الله البيت رفع يديه
ثم قال: «اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً ومهابة. وزد من
عظمه - بمن حجه واعتمره - تشريقاً وتعظيماً وتكرماً ومهابة
وبراً!! ولما دخل المسجد بدأ بالطواف حول البيت فطاف على
راحلته سبعاً، ثم انتهى فصلى ركعتين خلف المقام، ثم خرج
على راحلته فسعى بين الصفا والمروة؛ فلما انتهى من الطواف
والسعى، أمر من لم يسق الهدى من المسلمين أن يتحلل من
إحرامه إلى يوم التَّروية، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة، ثم
يُهل بالحج من ذلك اليوم عند خروجه إلى «مِنًى».

خطبة الوداع

وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة حتى يوم التروية. فلما زاغت

الشمس^(١) في ذلك اليوم ركب إلى منى فبات بها، ثم أصبح فصلى بها الصبح، ثم سار إلى «عرفة» حين رأى الشمس قد طلعت فلما صار ببطن عرفة وقف على راحلته فخطب في الناس خطبته الجامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال^(٢) :

«أيها الناس، اسمعوا مني أئين لكم، فإن لا أدري: لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً..»

حرمة الدماء والأعراض والأموال

«أيها الناس، أتدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟» قالوا: «في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام» قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا هل بلغت؟» قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!..

حرمة الربا والأخذ بالثأر

«ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

(١) زادت الشمس: مالت سد الظهر إلى ناحية الغرب قليلاً.

(٢) لاءنا بين الروايات في تجميع هذه الخطبة، ولم تخرج في مجموعها عن نص

كلامه، صلى الله عليه وسلم.

ألا وإن كل رباً في الجاهلية موضوع، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ؛ قضى الله أن لا ربا، وإن أول رباً أبدأ به رباً عمى العباس بن عبد المطلب.. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث^(١).. ألا هل بلغت؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!

حرمة الأشهر الحرم

«أيها الناس، إنما النسيء^(٢) زيادة في الكفر، يُضِلُّ به الذين كفروا، يُجْلُونه عاماً ويحرمونه عاماً لِيُواطِئُوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله؛ ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب - الذى بين جمادى وشعبان - ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا هل بلغت؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!

(١) كان مسترضعاً في بنى ليث فقتلته هذيل.

(٢) كان العرب يبادلون بين الأشهر الحرم، فيحلون بعضها عاماً ويحرمونه عاماً، تبعاً

لأموالهم.

حقوق النساء

«أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًا، وإن لكم عليهن حقًا.. فعليهن ألا يُوطئنَ فرشكم أحدًا، ولا يُدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه إلا بإذنكم، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتبهن فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا.. ألا هل بلغت؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!!..

أخوة ووحدة ومساواة

«أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لأدم، وأدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!!..

ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة

«أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم، فاحذروهُ على دينكم.. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه.. وإنكم ستسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت».. فجعل يشير بأصبعه السبابة إلى السماء ثم إلى الناس وهو يقول: «اللهم اشهد!.. اللهم اشهد!..»

ثم قال: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

وكان ربيعة بن أمية بن خلف واقفاً تحت صدر الناقة، يردد قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان صيئاً جهير الصوت، كلما قال رسول الله ﷺ كلمة صرخ بها ربيعة في الناس.

مناسك الحج

فلما انتهى رسول الله ﷺ من خطبته أمر بلالا فأذن

للصلاة، وجمع رسول الله بين الظهر والعصر جمع تقديم، ثم ركب ناقته حتى وقف بها عند الهضاب من عرفة، وظل يدعو ويستغفر حتى غابت الشمس وذهبت صفرتها من السماء. ثم أفاض من عرفات، وأفاض الناس معه إلى «المُزْدَلِفَةِ»^(١). وكان صلى الله عليه وسلم يوصي الناس بالسكينة والرفق في السير، وألا يغلب قوتهم ضعيفهم.

فلما وصل إلى المزدلفة جمع بها المغرب والعشاء جمع تأخير، ثم بات بها، ثم أصبح فصلّى بالناس صلاة الفجر، ثم ركب ناقته وأق «المشعر الحرام»^(٢) فوقف يدعو ويكبر ويهلل حتى أسفر الصبح وبان النهار، ثم دَفَعَ^(٣) من المشعر الحرام إلى منى قبل أن تشرق الشمس، وهناك استقبل «العَقَبَةُ الكُبْرَى»^(٤) فرمى بها سبع حصيات كان قد جمعها من المزدلفة. ثم ذهب إلى المَنْحَرِ^(٥) فنحر بيده من الهدى ثلاثاً وستين بَدَنَةً، وأمر على بن أبى طالب فنحر باقيها.

ثم أَحَلَّ صلى الله عليه وسلم من إحرامه، فحلق رأسه،

(١) المزدلفة: مكان بين عرفات ومنى.

(٢) المشعر الحرام: مكان بين المزدلفة ومنى.

(٣) دفع: خرج.

(٤) العقبة: مكان رمى الجمار وهي ثلاث عقبات: الكبرى والوسطى والصغرى.

(٥) المنحر: المكان الذى يذبح فيه الهدى.

وقص أظفاره، وتطيب^(١)، ولبس ثيابه، وعاد إلى كل ما كان فيه من الحل قبل إحرامه، ونادى مناديه في الناس : «إنها أيام أكل وشرب وحلّ».. واستمر صلى الله عليه وسلم يرمى الجمار عند زوال الشمس من كل يوم، حتى مرت أي التشريق^(٢) الثلاثة. ثم حذر^(٣) إلى مكة فودع البيت، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة.

بهذه الحجة كمل دين الله وتمت نعمته على عباده كانت هذه الحجة هي الحجة الأخيرة التي ودع فيها رسول الله ﷺ الناس، وسميت من أجل ذلك «حجة الوداع»، وقد سميت كذلك «حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة التمام»؛ لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، ولأنه ذكر للناس فيها ما يحل وما يحرم، وبلغهم شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه؛ فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه كُمل بذلك دين الله وخُتمت رسالاته. فأنزل على رسوله وهو واقف بعرفة قوله

(١) تطيب: تعطر برائحة طيبة.

(٢) أيام التشريق: هي اليوم الثاني والثالث والرابع من أيام عيد الأضحية.

(٣) حذر: نزل.

تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

وبهذا تمت كلمة الله عز وجل، وانتهت مهمة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فأشهد الناس في خطبته الأخيرة على أنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.. وأوصاهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب، ليكونوا شهداء على الناس يبلغونهم ما بلغهم رسولهم، كما كان الرسول شهيداً عليهم يبلغهم ما يوحى إليه من ربه.

وأصبحت الدعوة أمانة في أعناق المسلمين

وهكذا وضع الرسول ﷺ رسالته أمانة في أعناق المسلمين، يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل، ويتواصلون بالمحافظة عليها والعمل بها والجهاد في سبيلها، حتى تعم جميع أقطار الأرض وتشمل كل أرجائها، ويجتمع البشر كله على الدين الكامل، ويتحقق الغرض الذي أراده الله لعباده من الرسالة الخاتمة، فيعيش الناس في ظلها آمنين، وهو ما ترمى إليه الآية الكريمة من قوله سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ

(١) سورة المائدة الآية ٣.

اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ
هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ؛ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ^(١).

(١) سورة الحج آيتا ٧٧، ٧٨.

إلى الرفيق الأعلى

دنو أجل الرسول

كان كل شيء بعد حجة الوداع يوحى بأن أجل رسول الله ﷺ قد دنا، وأن حياته وشيكة الزوال، وكان صلى الله عليه وسلم يحس ذلك، فكان كلامه في خطبته يشير إلى ذلك في كثير من عباراته. وقد أدرك عمر بن الخطاب هذه الإشارة من قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فبكى حين نزلت هذه الآية، فإنه ليس بعد الكمال والتمام شيء يراد. وما كانت مهمة الرسول ﷺ في هذه الدنيا إلا أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس، فأما إذ بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، وكمل الدين وتمت به نعمة الله على عباده، فقد انتهت المهمة وتحقق الغرض، وأصبح رحيل رسول الله ﷺ عن هذه الدنيا أمرًا مترقب الوقوع في كل وقت.

إعداد جيش أسامة بن زيد

وقد صدّقت الأيام هذه الحقيقة، فإن رسول الله ﷺ لم يمكث بعد نزول هذه الآية سوى واحد وثمانين يوماً، ولم ينزل عليه بعدها حلال ولا حرام؛ وقد مرت هذه الفترة هادئة، لم يشغله فيها من أمور المسلمين أمر ذو بال، إلا ما كان من إعداد جيش أسامة ليسير إلى الشام. فقد أمر صلى الله عليه وسلم في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة (مايو سنة ٦٣٢) بإعداد جيش كبير، وأمر عليه أسامة بن زيد، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك فأؤطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش. فأغز صباحاً على أهل «أبني»^(١)، وحرّق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار. فإن أظفرك الله بهم فأقلّ اللُبت فيهم. وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك». وكان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في جيش أسامة، ولم يكن أسامة قد جاوز السابعة عشرة.

ويذهب رواية السيرة القدماء، وبعض كتابها من المحدثين، إلى أن السبب في إعداد هذا الجيش هو الثأر لقتل زيد وأصحابه في واقعة مؤتة، ولكن الدكتور هيكل في كتابه «حياة

(١) أبني: محل قريب من مؤتة على حدود الشام.

محمد» يذهب إلى سبب أشمل من هذا، فيقول: "إن رسول الله كان يحسب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، ويخشى أن تثور الذكريات بُحمة المسيحية من الروم، فيعلنوا الحرب على من طاردوا النصرانية في بلاد العرب". ويذهب الأستاذ محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة» إلى سبب لا يتعارض مع اتجاه الدكتور هيكل، ولكنه يعتبر سبباً مباشراً لإعداد هذا الجيش، فيقول: "إن فِرْوَةَ بن عمرو الجذامي كان والياً من قبل الروم على «مَعَان»^(١) وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام وبعث إلى النبي ﷺ يخبره بذلك. وغضب الرومان على فِرْوَةَ فجردوا عليه حملة جاءت به، وألقى في السجن حتى صدر الحكم بقتله. فضرب عنقه على ماء لهم يقال له «عفراء» بفلسطين، وترك هناك مصلوباً ليرهب غيره ممن يريد أن يسلك مسلكه. وقيل: إنه لما قدم إلى القتل قال:

بَلَّغَ سَرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنِّي سَلِّمٌ لِرَبِّي أَعْظَمِي وَدِمَائِي
فَأَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْجَيْشَ، وَأَمَرَ عَلَيْهِ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوَطِّئَ الْخَيْلَ مُحْمِومَ «الْبَلْقَاءِ وَالْدَارُوم»^(٢) مِنْ أَرْضِ

(١) هذه كلها مدن في أطراف الشام من ناحية الحجاز.

فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود".

وسواء أكان السبب المباشر لإعداد هذا الجيش هو فكرة الثأر لمقتل زيد وأصحابه، أم كان هو قتل فروة بن عمرو بعد إسلامه، فإن الأمر في مرماه لا يخرج عن العمل على توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، بإرهاب الروم من ناحية، وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود من ناحية أخرى.

مرض رسول الله

وعلى كل حال فإن هذا الجيش لم يُقدَّر له الخروج في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، فإنه بعد أن أمر بإعداد هذا الجيش وأخذ الجيش يتأهب للخروج، مرض النبي، صلى الله عليه وسلم، وجعل المرض يشتد به يوماً بعد يوم حتى شغل الناس بأمره عن أمر الجيش.

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قد استبطأ الناس في بعث أسامة وهو في وجعه، وبلغه أن ناساً تكلموا في شأن أسامة وقالوا: "أمر غلاماً حدثاً على جلسة^(١) المهاجرين والأنصار". فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، فحمد

(١) جلّتهم : كبارهم.

الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلم في إمارته لقد قلم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً بها » ! ثم نزل صلى الله عليه وسلم.. وجَدَّ الناس في جَهازهم، فخرج أسامة وخرج جيشه معه، حتى نزل بالجُرْف على فرسخ من المدينة، فعسكر هناك، وجعل الناسُ يتلاحقون به حتى تَنَامُوا^(١). ولكن رسول الله ﷺ ثَقُلَ واشتد به المرض، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسوله، صلى الله عليه وسلم.

عن أسامة بن زيد قال : "لما ثقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هَبَطْتُ وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد أَصْمَتَ لا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على، فأعْرِفُ أنه يدعو لي".

تمريضه في بيت عائشة

واستأذن رسول الله ﷺ أزواجه في أن يمرض في بيت عائشة، فأذِنَ له، فخرج يمشي بين الفضل بن عباس وعلى بن أبي طالب، عاصباً رأسه وقدماه مُحْطَّان في الأرض، حتى دخل بيت عائشة، فظل يمرض به حتى انتقل إلى جوار ربه.

(١) تناموا : تكاملوا.

وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يصلى بالمسلمين كلما حضرت الصلاة، وأن يعظهم ويَعْهَد إليهم كلما وجد من نفسه قوة. فحضرت الصلاة ذات يوم وقد غُمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال «هَرِّقُوا»^(١) على سبعِ قَرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعْهَد إليهم».

قالت عائشة : فأقعدها في مَحْضَب^(٢) لحفصة بنت عمر، ثم صبينا عليه الماء حتى طفق يقول : «حَسْبُكُمْ، حَسْبُكُمْ»^(٣) !
ثم خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، فكان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم ثم قال : «إن عبداً من عباد الله خَيْرُه الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله»..
ففهمها أبو بكر وعرف أنه يريد نفسه، فبكى وقال : "بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا"..
فقال رسول الله ﷺ : صلى الله عليه وسلم : «على رِسْلِكَ يا أبا بكر، لا تبك»..
ثم قال : «أيها الناس، إن أَمِنَ الناس»^(٤) على في صحبته وماله أبو بكر، ولو

(١) هراق الماء : صبه.

(٢) المحضب : إثناء واسع كالطست.

(٣) حَسْبُكُمْ : كفى كفى.

(٤) أَمِنَ الناس : أكثرهم فضلاً.

كنت متخذًا من الناس خليلًا لانتخذت أبا بكر خليلًا.. ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده».

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يصلى بالناس حتى غلبه المرض وأثقله عن الخروج، فقال: «مروا أبا بكر فليُصَلِّ بالناس».. فجعل أبو بكر يصلى بالناس حتى صلى بهم سبع عشرة مرة. وكان صلى الله عليه وسلم يحلو له أن ينظر إلى الناس وهم يصلون خلف أبي بكر، فيسره ما يراه من اجتماعهم وألفتهم، حتى كان هذا المنظر الحبيب إلى نفسه آخر منظر وقعت عليه عينه.

انتعاش الرسول يوم وفاته

ذكر ابن إسحاق في رواية له عن أنس بن مالك، أنه لما كان يوم الاثنين الذى قُبِضَ^(١) فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فَرَفَعَ له الست وفتح الباب، فقام على باب عائشة ينظر إلى المسلمين وهم يصلون. فكاد المسلمون يَقْتَتِنُونَ في صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ حين رأوه، وتفرَّجوا^(٢)؛ فأشار إليهم أن: «اثبتوا في

(١) قبض: مات.

(٢) تفرجوا: أفسحوا له.

صلاتكم».. وتبسم صلى الله عليه وسلم سرورًا بما رأى من هيبتهم في صلاتهم، ثم رجع.. وانصرف الناس وهم يرون رسول الله قد خَفَّ من وجعه، ورجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح من ضواحي المدينة.

وذكر في رواية أخرى عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مُليكة، أن رسول الله ﷺ في ذلك اليوم دخل المسجد حتى جلس إلى جنب أبي بكر، فصلى عن يمينه قاعدًا. فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس فكلّمهم، رافعًا صوته حتى خرج من باب المسجد.. فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: "يا نبي الله، إنى أراك قد أصبحت - بنعمة من الله وفضل - كما نحب". واستأذنه في أن يزور أهله بالسُّنْح، حين رأى دلائل العافية بادية عليه.

وسواء أكانت الرواية الصحيحة هذه أم تلك، فإن رسول الله ﷺ كان بادی النشاط والصحة في ذلك الصباح، حتى ظن الناس أنه قد أَبْلَّ من مرضه، وانصرفوا وهم مطمئنون إلى سلامته، ولم يَدُرْ بِجَلَد أحد أنها كانت صحوة الموت، وومضة السراج حين يريد أن ينطفئ.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن عائشة قالت: "رجع إلى رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل المسجد، فاضطجع في حجرى، فدخل رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر، فنظر رسول الله إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريدہ. فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم». فأخذته فضغته حتى لَبِثْتِه، ثم أعطيته إياه، فاستنَّ به كأشدَّ ما رأيتَه يستنَّ بسواك قط، ثم وضعه. ووجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَصَ وهو يقول: «بل الرِّفِيقَ الأعلى من الجنة»..! فقلت: خُيرتَ فاخترتَ، والذى بعثك بالحق!.. وقُبِضَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم".

كان موته حدثاً أذهل العقول

وكان موت رسول الله ﷺ حدثاً أذهل العقول، وفزع القلوب، وروع الأنفس، وبدا الناس فى شأنه حيارى حتى كأنه شئ لا يمكن أن يكون، فقد كان صلى الله عليه وسلم ملء القلوب والنفوس والأبصار والأسماع، وملء الدنيا بأسرها.. فلما مات كان الفراغ الذى تركه شيئاً لا يتصوره عقل ولا يُحَدِّه

إدراك، وكان وقعه على الناس أشد من أن يُحتمل، حتى كان من أصحاب رسول الله ﷺ من أقعد^(١)، ومن أخرس عن الكلام فما تكلم إلا من الغد، لما راعه من موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وحتى قام عمر بن الخطاب ثائراً في الناس، يتوعد من يقول: إن رسول الله قد مات!

ثورة عمر على الناس

عن أبي هريرة قال: «لما توفى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قام عمر بن الخطاب فقال: "إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد توفى.. وإن رسول الله - والله - ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات.. والله ليُرجعنَّ رسول الله كما رجع موسى، فليقتطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات" ..!»

أبو بكر يرد الناس إلى صوابهم

(قال): وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل

(١) أقعد: عجز عن الحركة.

على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله مُسَجَّى في ناحية البيت، عليه بُرْدُ حَبْرَةٍ^(١)، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: "بأبي أنت وأمي! أما المَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَقَدْ ذُقْتَهَا، ثم لن تصيبك بعدها مَوْتَةٌ أَبَدًا..!" ثم رد البرد على وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: "على رسلك يا عمر، أَنْصِتْ..!" فأبى ألا أن يتكلم. فلما رآه لا يُنصِتْ أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت".. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ؛ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر فلإنها هي في أفواههم..

(١) برد حبرة: نوع من ثياب اليمن.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

قال أبو هريرة: قال عمر: "فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت^(١)، حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قد مات".

هكذا ذهب الحادث بألباب الناس حتى أذهلهم، وحتى ذهب الظن بعمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ لم يمت، وأنه سيق في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها. ولكن كلمة أب بكر ردت عمر إلى صوابه، وكشفت للناس عن حقيقة ما كانوا ليجهلوها، لولا أن عَظَّمَ المصيبة بفقد رسول الله ﷺ أذهلهم، حتى نسوا أن رسول الله ﷺ بشرٌ من الناس، يجوز عليه ما يجوز على الناس من الحياة والموت، وأنه، صلى الله عليه وسلم، لم يمت حتى أدى رسالة ربه خير أداء، وبينها أحسن بيان، وترك أمته على المحجة البيضاء^(٢) ليلها كنهارها.

تجهيز الرسول والصلاة عليه

وكانت وفاته، صلى الله عليه وسلم، في يوم الاثنين، حين اشتد الضُّحى، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول،

(١) عُقرت: دهشت وتَحيرت.

(٢) المحجة البيضاء: الطريق البين الواضح.

من السنة الحادية عشرة (٩ يونية سنة ٦٣٢)، وعمره ثلاث وستون سنة.. وُغُسل، صلى الله عليه وسلم، في يوم الثلاثاء، وكُفِّن في ثلاثة أثواب: ثوبين صُحَارِيِّين، ويزِد حَبْرَة أدرج فيه إدراجًا.

فلما فُرِغ من جَهازه، صلى الله عليه وسلم، وُضع على سريره، ثم دخل الناس يصلون عليه أرسالا^(١).. دخل الرجال فصلُّوا عليه صفًّا صفًّا، حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان.

ولما أرادوا دفنه، صلى الله عليه وسلم، قال بعض المسلمين: ندفنه في مسجده؛ وقال بعض المسلمين: ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض».. فُرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه، فحُفِرَ له تحته، ثم دُفِن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء، في بيت عائشة، رضى الله عنها. وهو المكان الذى أقيم عليه ضريحه الطاهر، ورفعت عليه القبة الخضراء في مسجده الشريف بالمدينة المنورة، طيَّب الله ثراها، وعطَّر ذكرها وذكرها!!.

(١) أرسالا: جماعات يتلو بعضهم بعضا.

ذكر البيهقي عن الواقدي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التميمي، قال: «وجدت هذا في صحيفة بخط أبي.. لما كُفّن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووضع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته!».. ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، فسلموا كما سلم أبو بكر وعمر، وصفوا صفوفًا لا يؤمهم عليه أحد. فقال أبو بكر وعمر وهما في الصف الأول حيال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله به دينه، وتمت كلماته، فأومن به وحده لا شريك له فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى يعرفنا وتُعرفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا!».. فيقول الناس آمين، آمين! ^(١).

وأنا أقول معهم: «آمين، آمين! اللهم آمين!».. وأصلي وأسلم على محمد رسول الله وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) نهاية الأرب ج ١٨.

ملحق (١) الإسراء والمعراج

اختلاف الناس في شأن الإسراء والمعراج

لعل الناس لم يختلفوا في شيء قط كما اختلفوا في شأن الإسراء والمعراج، ولم يتجادلوا في شيء قط كما تجادلوا في أمرهما. فمن الناس من صدّق بهما جميعاً، ومن الناس من كذب بهما جميعاً، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج؛ ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد؛ ومنهم من قال إنه كان في اليقظة، ومنهم من قال إنه كان في المنام.

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه؛ ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج وما يرجح عنده من البراهين. وصدق الله العظيم إذ يقول في شأن هذا الحادث: ﴿وما جعلنا الرؤيا

التي أرثناك إلا فِتْنَةً للناس»^(١).

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن الناس يأتون إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضون حَكَمًا؛ فهل العقل يصلح أن يكون حَكَمًا في هذا الأمر الخطير؟.. وقبل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أو لا يصلح أن يكون حَكَمًا في مثل هذا الأمر، ينبغي لنا أن نعرف ما هو العقل، وما وظيفته، وما قدرته، وما حدوده، ومن أين يستمد العقل عمله ومعارفه.

هل العقل يستطيع أن يكون حَكَمًا في شأن الإسراء والمعراج

العقل هو قوة الفهم في الإنسان، فهو الذي به يستطيع أن يميز ويقدر، وقيس ويوازن، ويستنبط النتائج من مقدماتها، ويكوّن الكليات من جزئياتها، ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس، فيحكم - مثلاً - بأن هذا أحمر وهذا أبيض، وهذا حلو وهذا مر، وهذا ناعم وهذا خشن، وهذا طيب وهذا خبيث، وهذا بعيد وهذا قريب، وهذا صعب وهذا سهل، وهذا ممكن وهذا مستحيل.. وهو في كل ما يُصدر من هذه

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠.

الأحكام متأثر بما تمده به الحواس؛ فما من حُكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر، إما مباشر وإما غير مباشر والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئاً..

فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا ما يَصُكُّ مِسْمَعها من الأصوات، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر، والأنف لا يستطيع أن يشُم إلا ما يمر به من الروائح، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع فى قبضتها من الأجسام. وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع فى دائرة حسها من الأشياء؛ ثم هى ترسل بهذا الإدراك إلى العقل، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف، جميل أو دميم، طيب أو خبيث، كبير أو صغير.

فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذى تعيش فيه؛ ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئاً من غير هذا العالم. فالمسموع والمنظور والمشموم

والمذوق والملموس، لا بد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس، حتى تستطيع أن تدركها، وأن تؤدي إدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه. وتفسير الشيء والحكم عليه هو «الفهم». والفهم هو وظيفة العقل؛ وهو فرق ما بين الإنسان والحيوان الأعجم.

العقل يعتمد على الحواس في مدركاته

نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة: هى أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس، لأن الحواس هى روافده التى تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها؛ وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس، فلا يمكن أن تُوصَّل إلى العقل علمًا من غير عالمها.. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التى نراها بأعيننا، ونسمعها بأذاننا، ونذوقها باللسنتنا، ونشمها بأنوفنا، ونلمسها بأيدينا؟.. وبعبارة أخرى: هل نحن فى الواقع نرى بأعيننا كل شيء فى هذا الكون، ونسمع بأذاننا كل صوت، ونشم بأنوفنا كل ريح، ونلمس بأيدينا كل جسم؟.. لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه؛ لأنها إما بعيدة عن متالها، وإما خارجة

عن دائرة إدراكها؛ وهى فى كلتا الحالتين تعتبر «غَيِّبًا»
لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه.

هل كل ما غاب عن حواسنا غير موجود

فهل نستطيع إذن أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا
غير موجود؟ لا شك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك،
ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير
معقول أن يكون موجودًا، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع
أن يحكم، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته، والتى يعتمد
على إدراكها لذلك الغيب، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب، أو
هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه. فوسائل العلم إذن بهذا
الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه، فإذا
استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته، استطاع العقل أن
يفهمه ويصدر حكمه عليه؛ أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن
الوصول إليه، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به، فلا يستطيع
أن يفسره ولا أن يحكم عليه؛ فإذا تصدى للحكم كان حكمه
خطأ، لأنه حكم قائم على غير علم.

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع.. لو أن قائلًا قال للناس
قبل مائة عام مثلاً: إن هناك فى الكون سرًا عجيبًا، يكون فى
بعض الأجسام نورًا، وفى بعضها قوة، وفى بعضها حرارة، وفى

بعضها برودة، وفي بعضها صوتًا، وفي بعضها صورة؛ وأحيانًا يكون دواء ناجعًا، وأحيانًا يكون موتًا صاعقًا.. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر؟ فلما أن كشف العلم سر «الكهربا» ولمس الناس آثارها، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر. فهل كانت الكهرباء معدومة ثم وجدت حين اكتشافها العلم؟.. لا؛ بل كانت موجودة في الكون منذ خلق الله الكون، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن تدرك آثارها، فلما أدركتها الحواس عرفها العقل؛ وكذلك الشأن في كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه.

وقديمًا عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر في المدينة: «يا سارية الجبل، الجبل!!» يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل، فسمع سارية النداء فأخذ جُذره من ذلك الكمين؛ ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا، بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت في الراديو. إذن فهناك في الكون أسرار لم تزل خافية على العقل، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة، لأنها لم تصل إلى عمله بعد، أو لأنه

غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله. وإن فيما يشكف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلاً على أن هنالك أسراراً لم تُكشَف لنا بعد؛ ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

ويعجبني في هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم - أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون - برجل جلس على شاطئ البحر، فجعل ينظر إلى البحر مبهوراً بعظمته، متطلعاً إلى ما فيه من أسرار، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة، فصاح مسروراً: لا شك أن في هذا البحر سمكاً. ثم قذف له البحر مَرْجَانَةً، فصاح مبتهجاً: ولا شك أن فيه مرجاناً. ثم قذف البحر له لؤلؤة، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك.. وهكذا، كلما رمى البحر له شيئاً ظن أنه كشف سرّاً من أسرار هذا البحر. لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما في البحر من أسرار؟ لا شك أنه لا يستطيع، ولو قضى عمره على شاطئ البحر.. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون.

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

العقل لا يستطيع أن يحيط بكل ما في الكون من أسرار

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى؛ هي أن العقل لم يحيط بكل ما في الكون من أسرار، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه، إنما هو رَجْم بالغيب وَخَبْط في الظلام؛ وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل. والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة؛ أما ما وراء عالم المادة - وهو عالم الغيب - فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئاً. فعلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقاً أبداً. ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم في مسألة «الإسراء والمعراج»، لأنها من عالم الغيب الذي لا تدركه الحواس.

السمع وحده هو طريق الاتصال بعالم الغيب

من أى طريق - إذن - يأتى للعقل علم ما وراء المادة؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق «السمع». من طريق السمع وحده لا من طريق غيره؛ وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من

صادق أمين، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة، أى «بعالم الغيب». وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل؛ والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار، لأنهم يتلقونها بطريق الوحي الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين. فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسول والأنبياء عن عالم الغيب؛ وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئاً، لأنه خارج عن نطاق إدراكه.

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة. ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس؛ والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة.

فالسَّمْع - إذن - هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار، والملائكة والجن، والحشر والحساب، وما إلى ذلك من «السَّمْعِيَّات» التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السَّمْع وحده.

«والإسراء والمعراج» من هذه السَّمْعِيَّات.. فليس للعقل

مجال في الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب، وبالجواز أو بالاستحالة، لأنها غير داخليين في نطاق علمه؛ فإذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم فليس للعقل - إذن - إلا التصديق بما ورد عنها عن لسان الصادق الأمين، وهو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته، لأن ذلك شيء ليس في طاقة العقل أن يفهمه، لأنه من عالم الغيب الذي لا يدخل في دائرة إدراكه. أما الذي يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة في ذلك الإسرائء والمعراج.

حكمة الإسرائء والمعراج

أما حكمة الإسرائء فقد أوجملها الله سبحانه في قوله: ﴿لُزِيه مِنْ آيَاتِنَا﴾ وذلك حيث يقول عز وجل من سورة الإسرائء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لُزِيه مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) وأما حكمة المعراج فقد أوجملها الله سبحانه في قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾؛ وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ

(١) سورة الإسرائء الآية ١.

الْمُنْتَهَى * عندها جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى *
 مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
 الْكُبْرَى^(١).. وذلك في رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت
 في شأن المعراج.

فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله
 المعراج، هو أن يُرى الله رسوله ما شاء من آيات قدرته،
 وعجائب صنعه، وعظيم ملكه؛ ليطمئن قلبه، وتستتير بصيرته،
 ويزداد يقينه.

درجات المعرفة

ويقول العلماء: إن المعرفة درجات ثلاث: علم اليقين، وعين
 اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين هو المعرفة التى تقوم على الخبر
 الصادق، وعين اليقين هو المعرفة التى تقوم على المشاهدة؛ وحق
 اليقين هو المعرفة التى تقوم على التجربة والممارسة.. فأنت إذا
 سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك في خبره،
 فذلك علم اليقين؛ فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك، فذلك
 عين اليقين؛ فإذا أنت عشت في هذا البلد فعاشرت أهله-
 وعرفت أموره ودرست أحواله، فذلك حق اليقين. كذلك إذا

(١) سورة النجم الآيات ١٣ - ١٨.

سمعت عن شخص، ثم رأيته، ثم خالطته وجربته، فقد تدرجت في المعرفة به درجة بعد درجة؛ من علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، وهي الدرجة التي ليس بعدها درجة في العلم ولا في المعرفة.

تطلع النفس إلى الترقى في درجات المعرفة

”والرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات، أو أنباء عالم الغيب، بإيمان وتصديق وبقين لا يقبل الشك، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى في المعرفة من درجة «علم اليقين» إلى درجة «عين اليقين»؛ فقد حكى الله عن نبيه عزَّز أنه ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ^(١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا^(٢) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلِمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣)... وحكى عن خليفه إبراهيم أنه قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي

(١) لم يتسنه : لم يغيره السنين.

(٢) ننشزها : نعيد تركيبها ونضعها في مواضعها.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي
قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ^(١)، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ
مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا واعلم أن الله عزيز حكيم^(٢)...
وحكى عن رسوله موسى أنه قال : ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ
تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي؛ فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا^(٣) فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ^(٤)...

«ومحمد، صلى الله عليه وسلم، سيد الأنبياء وخاتم الرسل،
وأكرم خلق الله على الله، فكان من كرامته عليه - سبحانه -
أن خصه بتلك الرحلة المَلَكُوتِيَّة العجيبة، ليريه من آياته
ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه، ليرقى به من منزلة «علم
اليقين» إلى منزلة «عين اليقين». فكان صلى الله عليه وسلم هو
الرسول الوحيد الذي يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة
عن عيان ومشاهدة، لا عن مجرد الخبر السهاوى فحسب. ولذا
كان ﷺ واضح البيان في تعليمه، يكثر من التشبيهات وضرب

(١) صرهن إليك : أى اجمعهن فى يديك لتستوثق من حياتهن.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٣) سقط صريفاً من هول ما رأى.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

الأمثال وأنواع الاستعارة، ليقدم للناس تلك الحقائق السكونية الخفية، مصوّرة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة. وتلك منزلة من سمع ورأى، لا من سمع فقط.

«ولقد كان الوحي ينزل عليه بنحبر تلك الحقائق والآيات الغيبية، فيخبر مثلاً عن الذين يأكلون الربا بأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١)؛ وعن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بأنهم ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾^(٢)؛ ويخبر عن آل فرعون في حياة البرزخ بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٣).. وهكذا وهكذا مما نزل به الوحي على قلبه، صلى الله عليه وسلم. وتلك معارف جليّة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل، ويتشوفون إلى درجة في المعرفة أعلى من الدرجة التي هم عليها. ولا شك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يتشوف كما يتشوفون، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره، تأدّباً معه، سبحانه وحياه منه؛ فأكرمه الله، سبحانه، بتلك الرحلة ليريه من آياته ما يشاء، ويطلعه من عجائب كونه على ما يريد، وليفضي إليه بما يشاء

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

(٢) سورة النساء الآية ١٠.

(٣) سورة غافر الآية ٤٦.

من أسرارهِ جل شأنه»^(١).

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن في الدول الكبرى، حيث تستدعى الدولة سفيرها فتفضي إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة، وترسم له الخطة كما ينبغي أن تكون. وهو مَنزَعٌ شغرى جميل، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم؛ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

هل الله مكان؟

وهنا يستشكل الأمر على بعض الناس فيقولون: وهل الله، عز وجل، مكان حتى يَعرُجَ إليه فيه رسوله؟.. لقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن، لأننا الآن نرى الطائرات تقطع هذه الرحلة ذهاباً وإياباً في بضع ساعات؛ وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله ﷺ عُرج به إلى السماء، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث في الوصول إلى الكواكب؛ وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ^(٣)، ومن صور الأعمال، ومن عجائب

(١) منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤ : مقال للأستاذ البهي الخولي مع بعض تصرف.

(٢) سورة النحل الآية ٦٠

(٣) البرزخ : هو فترة ما بين الموت والنشور. وهو الفترة التي يقضيها الموتى في قبورهم

حتى يبعثوا يوم القيامة.

الكون حق، لأن خبره صادق لا يقبل الشك.. ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله في حضرة ربه ذى الجلال، عند سدرة المنتهى؟ أليس معنى هذا أن الله، جل جلاله، مكاناً، وأنه - سبحانه - في السماء السابعة أو فيما وراءها؟..

والأمر في حقيقته غير مُشْكل، ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا، لأننا أخضعناه لمدرجاتنا الحسّية، وحكّنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر. فالله، سبحانه وتعالى، ليس بعيداً عن رسوله حتى يقطع للقاء هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى، بل هو معه حيثما كان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ بل هو قريب من عباده جميعاً، يسمعهم إذا دعوا، ويحييهم إذا سألوا، ويكون معهم أينما كانوا: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلَا خُمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾^(١)؛ والذى يقول لرسوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢) وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المؤمنين أن يبالغوا فى رفع أصواتهم، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر، فقال: «ارْتَعُوا عَلَى

(١) سورة المجادلة الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

أنفسيكم^(١)، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم».

فلم يكن الغرض من العروج - إذن - أن يلقى محمد ربه في مكان بعينه؛ إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى، وليطلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقيناً على يقين، وإيماناً على إيمان؛ وليستشعر المنزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التي أعدها له ربه.. وإلا؛ فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفاية وغناء.

العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات

على أن العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات، ولا يزال من أمرها يجتبط في متاهة عمياء على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود.. يقول الأستاذ حنفي أحمد في كتابه «معجزة القرآن في وصف الكائنات» ص ٥٠: «إن استعمال المراقب الحديثة في الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التي تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التي تدور حولها.. تسبح في حشد عظيم من النجوم، تظهر في

(١) أى ارققوا بأنفسكم ولا تبلغوا في رفع أصواتكم.

صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم «السديم أو مجموعة المجرة».. وأن هناك - عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم - التي تُرى في المجرة - أجساماً أخرى ترى على هيئة سُحب مضيئة قليلاً، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة، وقد أطلق عليها اسم «الجزائر الكونية»، وهي السُدُم العظمى أو المجرات الخارجية، وهي عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة^(١)، نظراً لأبعادها الساحقة. وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة في الفضاء.. في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليوناً ونصف مليون من السنين الضوئية، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء في مليون ونصف مليون من هذه السنين، على حين هو يقطع في السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال^(٢).

ثم يقول في ص ٥٤: «وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة، إذ وُجد أن أقربها - ويدعى «سديم أندرو ميذا

(١) بلغت قوة مرصد «مونت ولسن» بأمريكا أن تدخل في العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية.

(٢) تبلغ سرعة الضوء في الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفاً من الأميال.

العظيم» - يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية».

ثم يقول بعد ذلك فى ص ٦٢: «وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفى للمجرات الخارجية.. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار، وسرعات عظيمة جدًا تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة؛ فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار. ويقول السير جينز: إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية؛ وإن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده، أى إن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلا على ضعف قدره الأصلى».

ويؤكد الأستاذ حنفى أحمد فى ص ٥٤ - على لسان السير جينز العالم الفلكى الإنجليزى - «أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية بالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة».

هكذا يقول العلم، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها

العلم حتى الآن. فإذا نحن سائرنا العلم في نظرياته فلماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب؟ وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها، ولا يعرف العلم مداها؟ وكيف يكون الصعود فيها، وكيف يكون الهبوط، وكيف يكون الاستواء؟ أليس الأمر - إذن - أوسع من أن يحُدّه العلم، وأعظم من أن يحكم فيه العقل، وأعمق من أن تحيط به الأفهام؟.. ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾*.... وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١).

البقرة المباركة

وبعد، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة، وهى الفترة التى يشس فيها رسول الله ﷺ من إيمان قريش، فذهب إلى ثقيف فردته أقبح رد، فعاد مكلم الفؤاد واهن القوة، يضرع إلى الله ويستعينه، ويشكو إليه ما يلاق من صلود الناس عنه وسُخْرهم به وجراتهم عليه؛ فلعله كان من تظمين الله له ومن رحمته به أن هيا له هذه

(١) سورة الزخرف الايات ٨٢، ٨٤، ٨٥.

الرحلة الملكوتية، ليطمئن قلبه، وليعلم أنه بعين الله دائماً أبداً، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر، وإن تراكمت أمامه العقبات، وأحلّوكك حوله الظلمات.

لقد كان الإسراء رحلة مباركة في الأرض، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان؛ وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولهما، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده، وكانا مهبط الوحي على رسله وأنبيائه. وقد مر، صلى الله عليه وسلم في رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى، عليه السلام، وهى «طورسينا»، فصلى بها ركعتين؛ ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام، وهى «بيت لحم» فصلى بها ركعتين؛ ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في حشد من الأنبياء والرسل، فصلى بهم جميعاً؛ ثم عُرج به إلى السماء، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى.

حياة البرزخ

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم حياة «البرزخ»، وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة؛ فرأى الأنبياء، صلوات الله عليهم، ورأى منازلهم ودرجاتهم؛ ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها، يتلقاها آدم

أبوالبشر فيفرح بطيبتها ويحزن لخبيثها. ورأى حقائق الأعمال مصوِّرة
في صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون؛ فرأى آل فرعون
ومَن على شاكلتهم من الطغاة والظُّلَّمة، يُعرَضون على النار غُدُوًّا
وعَشِيًّا؛ ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، لهم مشافر
كمشافر الإبل، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقذفونها في
أفواههم فتَهوى إلى بطونهم، ورأى الذين يأكلون الربا يُوطَّشون
بالأقدام فلا يستطيعون القيام، كلما هموا لينهضوا سقطوا؛ ورأى
الرِّزَاة يتركون لحماً طيباً سمياً، ويأكلون لحماً مُتَسْتِئِماً خبيثاً؛ ورأى
اللاقى يُدخلن على أزواجهن غير أولادهن معلقات بُدِيَّين؛ ورأى
الذين يفتابون الناس ويقعون في أعراضهم لهم أظفار من نحاس
يخمشون بها وجوههم وصدورهم..

ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة؛ ورأى الملائكة حافين من
حول العرش يسبحون بحمد ربهم؛ ورأى غير ذلك من آيات
الله وعجائب قدرته، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن
يكون من سمو الروح وصدق اليقين في الدرجة التي كان هو،
صلى الله عليه وسلم، فيها.. وتلك درجة رفيعة، ومنزله خصه
الله تعالى بها دون سائر خلقه، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين
هم صفوة خلقه جميعاً.

وفي حضرة القدُّس الأعلى فرضت عليه الصلاة؛ ولعلها

كانت هي هي السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله؛ فإن الصلاة هي الصلة الدائمة بين العبد وربّه، وهي لب العبادة وجوهرها، وعماد الدين وركأزه.

الغلطة الشائعة

ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فأخبر بما كان من أمره في تلك الليلة المباركة؛ فكذبتة قريش، واستفطع الناس الخبر حتى افتتن به بعض من آمن. أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا في الأمر عجباً، فهذا الوحي ينزل عليه من السماء كل يوم؛ فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحي، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب، ليتلقى من الوحي ما شاء الله أن يُلقى إليه، وليرى ما شاء الله له أن يرى.

وهكذا كان هذا الحادث فتنة للناس؛ تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين. ولا يزال الناس إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله أن يكون، يخوضون في شأن «الإسراء والمعراج»، فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به. والغلطة الشائعة بين الجميع أنهم يحكمون فيه العقل، وليس للعقل طاقة بالحكم فيما ليس له به علم. ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده، وأبعدوه عما ليس

من شأنه، لما كان في الأمر لبس ولا إشكال. وصدق الله العظيم
إذ يقول: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤْلَاءَ حَآجَجْتُمْ فِيمَآ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَآ لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران: ٦٦.

ملحق (٢) الإنسان الكامل

عداوة الشيطان لآدم وبنيه

ما مهمة الإنسان في هذه الأرض؟ وما منزلته بين المخلوقات التي خلقها الله عز وجل في هذا الوجود؟ يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١). وفي سور كثيرة من القرآن الكريم ذكر، الله عز وجل أنه حين خلق الإنسان الأول - وهو آدم أبو البشر - أسكنه الجنة، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢)؛ فكان جزاؤه أن طرده الله من الجنة،

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) سورة ص الآية ٧٦.

وتوعده بالعقاب الشديد، فخرج منها وهو يضمّر العداوة لآدم، وآلّى على نفسه أن يفسد عليه وعلى بنيه حياتهم، وأن يُغويهم ويستهوئهم بكل أساليب الخداع والمكر، حتى ينحرف بهم عن طريق الخير إلى طريق الشر، ويُعدّل بهم عن أسباب السعادة إلى أسباب الشقاء؛ وتمنى على الله أن يؤخره إلى يوم القيامة، حتى يؤدي هذه المهمة التي رصد حياته لها، وعاهد نفسه عليها. فأجابه الله، عز وجل، إلى ما تمنى، وقال: ﴿إِذْ هَبْ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(١).

وهكذا بلغ الشيطان أمنيته في البقاء، وأخذ يعمل في الكيد لآدم حتى استطاع أن يخرج من الجنة كما خرج هو منها، وهبط آدم والشيطان إلى الأرض، وكل منهما يضمّر العداوة لصاحبه.

الإنسان خليفة الله في الأرض

ماذا كانت مهمة الإنسان في الأرض...؟ يقول الله تعالى:

(١) سورة الإسراء الآيات ٦٣ - ٦٥.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا :
 أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
 بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

كانت مهمة الإنسان إذن أن يكون خليفة الله في الأرض
 ليقيم فيها الحق والعدل، ويَعْمُرَهَا بِالْخَيْرِ وَالسَّلَامِ، وكانت
 مهمة الشيطان أن يصرفه ما استطاع عن بلوغ هذه الغاية. ومنذ
 ذلك العهد البعيد والصِّراع بين الإنسان والشيطان قائم في
 الأرض، لا يخلو منه مكان ولا زمان. وهى معركة الخير
 والشر، التى أراد لها أن تظل دائرة حتى تقوم الساعة.

عناصر التكوين في الإنسان

قد يقول قائل : ولماذا أراد الله لهذه المعركة أن تدوم في
 الأرض، ما دام سبحانه يريد أن يعمرها بالخير والسلام؟
 ولماذا سلط الشيطان على الإنسان وقد اختاره ليكون خليفته في
 إقامة الحق والعدل؟ ولماذا لم يذل له الطريق ويحول بين
 الشيطان وبينه، حتى يتسنى له أن يصل إلى الغاية التى أرادها
 له؟ وإذا كان الشيطان قد سُلِّحَ بكل قوى الإغواء ليصرف

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

الإنسان عن غايته، فهل سُلِّح الإنسان بما يقاوم هذه القوى حتى يحقق الغاية من وجوده؟

هذه أسئلة قد تدور في الرءوس وتجري في الخواطر، وقد يدور غيرها وغيرها حول هذه المشكلة. ولكي نستطيع الجواب عنها ينبغي أن نقف قليلا حتى ننظر في طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها.

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١)

ويقول سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ، لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢)

(١) سورة السجدة الآيات ٧ - ٩.

(٢) سورة البقرة الآيات ٣١ - ٣٣.

ومضمون هذا أن الإنسان خلق من عنصرين : عنصر أرضي، وهو عنصر الطين الذي يشترك فيه مع سائر الخلائق التي تدب على الأرض، من حيوان وطيور وحشرات وهوام؛ وعنصر سماوي، هو هذه النفخة الروحية التي كرمه الله بها، وأودع فيها سر المعرفة التي امتاز بها الإنسان، وصار قادراً على أن يدرك ما لا يدرك غيره من الخلائق التي تشاركه الحياة في الأرض. وهو ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. وقوله جل شأنه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

العنصر الأرضي وطبيعته

فبمقتضى العنصر الأرضي في الإنسان رُكبت فيه الغرائز التي يحتاج إليها الجسم في نموه وسلامته وصلاحيته للحياة. وهي غرائز يشترك الإنسان والحيوان في كثير منها: فكلاهما جسم يتركب من عظم ولحم ودماء وعروق وأعصاب وغير ذلك؛ وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذي يقيم حياته، وإلى القوة التي يقي بها نفسه، وإلى التناسل الذي يحفظ به نوعه؛ وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعي في سبيل قوته، وإلى القتال في سبيل حياته، وإلى التزاوج في سبيل نوعه. وتحت تأثير هذه الغريزة

ينشأ ما يكون في الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة، وما يترتب على كل ذلك من مظاهر الطمع والظلم، والشح والأنانية، والاندفاع مع الشهوة، والميل مع الهوى.

العنصر الروحي وطبيعته

فالإنسان من هذه الناحية المادية يستوى مع الحيوان في الاندفاع الغريزي نحو الحياة. ولكن العنصر الروحي فيه يرفعه عن مستوى الحيوان، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكم في غرائزه ويؤمن عليها، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهدى، في كل ما يقيم حياته على الأساس الذي يليق به كإنسان. فهو لا يندفع مع الغريزة اندفاعاً أعمى كما يندفع الحيوان، بل يستخدم كل ما وهبه الله من القوى العاقلة في الهيمنة عليها والانتفاع بها، حتى تؤدي أغراضها في غير ما ضرر به ولا بالمجتمع الذي يعيش فيه.

أسلحة الإنسان ضد عدوه الشيطان

وفي الإنسان من هذه القوى قوتان بارزتان هما «العقل والإرادة». فالعقل هو القوة المدركة التي يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويعقل، ويميز الخير من الشر والنافع من الضار. والإرادة هي القوة العاصمة التي يستطيع بها أن يضبط حركاته

وسكناته، فلا يُقَدِّم ولا يُحْجِم، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتكلم ولا يَصْمُت إلا على هَذَى العقل وإرشاده، لا على دفع الغريزة وانطلاقها.

فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبداً لغرائزه، بل هو مَلِكٌ عليها، يحكمها ولا تحكمه، ويوجهها ولا توجهه، وهذا فرقٌ ما بينه وبين الحيوان الأعجم؛ وبمقدار ما يحسن الإنسان من استخدام هاتين القوتين، يكون الفرق بينه وبين الحيوان.

هذا إلى قوة ثالثة كرم الله بها الإنسان وميزه على غيره :
هي «الضمير».. وهي قوة لها اعتبارها بين قوى الإنسان، لأنها قوة خيرة، توجه دائماً إلى الخير وتَنَزَّعُ عن الشر، وتبني على الإنسان في كل أحواله، وتراقبه في كل أفعاله، وتَنَزَّع به إلى الندم إذا وقع في الإثم، وتمن في إيلامه وتبكيته إذا تمادى في الغواية. وقلماً خلا إنساناً من وَخز الضمير مهما كان طبعه.

فهذه القوى الثلاث إنما هي حصون حصن الله بها الإنسان ضد عدوه الشيطان.. فالعقل بإدراكه يميز بين الخير والشر، والضمير بحساسيته يدفع إلى الخير وينزع عن الشر، والإرادة بقوته تفعل أو تترك حسبما يوجهها العقل والضمير؛ وجميعها قوى خيرة، لأنها أثر من آثار النفخة الروحية التي كرم الله بها الإنسان. ولا شك أنها أسلحة قوية يستطيع الإنسان بها أن

يتحكم في غرائزه، ويرسم لها النهج الذى تسير عليه، حتى تؤدي وظائفها على خير وجه؛ كما أنها أجنحة قوية يستطيع بها أن يخلق في جو السماء.. ولا نقصد بالسماء تلك الكواكب والنجوم، ولا ذلك اللون الأزرق الذى يعلو رؤوسنا؛ إنما نقصد بالسماء كل أفق من آفاق السمو إلى المثل الأعلى، وكل معنى كريم من معاني الخير، وكل خُلق عظيم يسبغ على الفرد والجماعة رُوح السعادة، من الصدق والوفاء، والعدل والأمانة، والمحبة والإخلاص، والمروءة والشجاعة، والتضحية والإيثار، والرحمة والحنان، والعفو والإحسان.. إلى غير ذلك من كل معنى فاضل تستريح إليه النفس، ويطمئن إليه الضمير.

تسخير الطبيعة للإنسان وإعدادها لمنفعتهم

هكذا برأ الله الإنسان، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان، ولا روحية صرفة كحياة الملائكة؛ بل جعلها مزيجاً من المادة والروح، ليتلاءم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التى يحيا عليها جسمه، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التى تنهوا إليها روحه. "فكان له إلى جانب بشرته ناحية روحية، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة، وتجعل له في طبيعته مصدرًا لإلهام الخير وصفات الكمال"^(١).

(١) آدم : للاستاذ البهي لحولى.

ولما كانت الخلافة ميدانها الأرض، فقد سخر الله للإنسان كل ما فيها، وكل ما يحيط بها من السموات، ومن الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض؛ ليستخدم مواهبه في اكتشاف أسرارها، واستخراج كنوزها، واستغلال خيراتها؛ ويعيش فيها سيدًا كريماً، يقيم الحق والعدل في أرجائها، وينشر الخير والسلام في نواحيها، وَيَقْصَعُ البغى والعدوان والظلم، ويؤدى عن الله فيها كل ما يريد لعباده من أمن وطمأنينة وسلام..

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) .. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(٢).

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ - ٣٤.

(٢) سورة لقمان الآية ٢٠.

مواهب الإنسان كافية لأداء مهمته على خير وجه

فهو عز وجل لم يترك الإنسان هَمَلاً، ولم يهبط به إلى الأرض وهو أعزل، بل سلحه بكل قوى الخير، كما سُلِّحَ عدوُّه الشيطان بكل قوى الشر؛ "وبين له سنن الكائنات التي تحكمها، وتضبط خيرها وشرها، وتنظم نفعها وضرها، وبث فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النوامس والسنن.. وجعل له من مواهبه قُوًى تناسب طبيعة العمل الأرضي البحت، وأخرى ذات روح إلهية لا تُنتهى إلى الأرض بصلة، ولا تستمد منطقها من عالم الأرض، وإنما تستمد من نور الله وفضله، سبحانه..

فليس في مواهب المراء شيء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق الخلافة التي أعده الله لها وكرمه بها.. فإن هو أدى الذى عليه ونهض بحق ما ألقى إليه، فقد أنصف نفسه، وكان عند ما أراد الله له من كرامة؛ وإن أرادها مَلْهَةً ومَأْكَلَةً وشهوة، وعطل بعض مواهبه دون بعض، فقد غير خلق الله فيه، وانسلخ مما أراد الله له من الكرامة والخير"^(١). وكان كما يقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ

(١) آدم، بشيء من التصرف.

مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا
وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَتَلَّهُ كَمَا تَلُّهُ الْكَلْبُ إِذَا
تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بَيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ^(١).

الإنسان هو المستول عن استخدام مواهبه

بكل هذه المواهب والقوى أمد الله الإنسان، وأعده ليكون
أكمل الخلائق نشأة، وأرفعها قدرًا، وأهداها سبيلًا. فما على
الإنسان - وقد أمدَّ بكل ذلك - إلا أن يلائم بين مواهبه ويوائم
بين قواه، حتى يسير بها في الطريق السوي، وإلا أن يراعى
سُنَنَ الله في الكائنات، حتى يحقق بها الخير والنفع لنفسه ولن
حوله؛ فإن الله، تبارك وتعالى، إنما خلق الأشياء كلها لخير
الإنسان ونفعه، ولكنه لم يخلق شيئًا بحيث يكون نفعًا محضًا
ولا بحيث يكون ضررًا محضًا، بل أودعها جميعًا قابليتها للنفع
والضرر، وجعل لكل شيء قدرًا يتحقق به نفعه ويتسبى به
ضرره.. فإذا استعمل الشيء فيما خلق من أجله، وبالقدر الذي
حدد له كان خيرًا ونعمة، وإن أُسيء استعماله أو تُجبروز به

(١) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ - ١٧٧.

مقداره كان شراً ونقمة "وأبداً تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة، وإنما تفسدها يد الإنسان"^(١).

وهكذا تجرى القاعدة مطردة كما بينها القرآن الكريم:
﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾^(٢).. ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾^(٣).

لا يستطيع الشيطان أن يخدع الإنسان إلا من طريق غرائزه

وليس من شك في أن الإنسان إذا لاءم بين مواهبه وقواه، فسيطر بعقله وإرادته وضميره على غرائز الجسم، وراعى سنن الله في استخدام الأشياء، فلن يكون للشيطان عليه من سلطان ولكن الشيطان كثيراً ما يغرر به ويستهويه، وكثيراً ما يستدرجه ويستزله حتى يفسد عليه ذوقه ورأيه وتقديره، ويزين له سوء عمله فيراه حسناً.. وإنما يأتى الشيطان غريمه من طريق غرائزه، فلا يزال يثيرها ويستفزها ويهدهدها حتى تكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته، فيندفع معها اندفاع الحيوان. ذلك أن

(١) العقل المؤمن: للأستاذ عبد المنعم خلاف.

(٢) سورة النساء الآية ٧٩.

(٣) سورة يونس الآية ١٠٨.

غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة، شأنها في ذلك شأن الغرائز في كل حيوان يدب على الأرض: "أما خصائصه الروحية فلا قِبَل للشيطان بها ولا سلطان له عليها، لأنها سر الله، عز وجل، في ابن آدم، وحصنه الذى حصنه به وآواه إليه. ولا يزال المرء في قوة وَمَنَّة ما استعزَّ بهذا السر واحتمى بهذا الحصن، فإذا غفل أو تهاون في الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه، فكان أهون شيء على الشيطان أن يُغويه، لأنه حينذاك لا يكون إلا في حماية غرائزه، وهى أضعف نواحيه تماسكًا وأكثرها تهالكًا وانهايرًا"^(١).

وقد يَأْتى الشيطان آدمَ وحواء من قبل الغريزة، فعمد إلى غريزة «حب التملك»، وإلى غريزة «حب البقاء»، فاستثارهما في نفسيهما، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ^(٢)﴾ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فلما ذَاقَا الشجرة بدت لهما سوءَاتُهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ونَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ

(١) آدم، مع تصرف كثير في العبارة.

(٢) ملكين (يفتح اللام) هى القراءة المشهورة، أى أن تكونا من الملائكة. وهناك قراءة أخرى بكسر اللام، من الملك وهو الحكم والسلطان، كقوله تعالى حكاية عن الشيطان ﴿قَالَ: يَا آدَمُ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلُ﴾.

تَلَكُمَا الشَّجَرَةَ وَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ^(١).. وهكذا لم يستطع الشيطان أن يخدع آدم وحواء إلا من طريق الغرائز؛ فلما تنبهت فيها خصائصهما الروحية أدركهما الندم والألم، فسارعا بالتوبة والرجوع إلى الله، عز وجل.

الله، عز وجل، تعهد الإنسان بالتربية فوق ما وهبه من القوى الخيرة

ولقد كانت هذه الخصائص كافية وحدها لعصمة الإنسان من غواية الشيطان، لو أنه اعتصم بها واعتمد عليها في مقاومة عدوه؛ ولكن الشيطان محتال خبيث، «يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، ويتسرب إليه من كل مدخل خفي، حتى يلبس عليه أمره، ويعمى عليه وجه الصواب، فلا يرى الحق حقاً ولا الباطل باطلاً. والله، عز وجل، يريد للإنسان أن يكون أهلاً لما خصه به من الكرامة، ويريد له ألا يضل في متاهات البهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص، ويريد له أن يؤدي حق الخلافة التي هيأه لها، وأعدّه لاحتمال تبعاتها؛ وهي

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٠ - ٢٤.

أمر ليس بالهين، لأنها خلافة عن الله الذي يقول الحق وهو يهْدِي السبيل.. والله يريد لخليفته أن يتخلَّق بأخلاقه، وأن يتبين الحق واضحا في كل شيء حتى لا يُزِلَّهُ الشيطان عنه.

من أجل ذلك تعهده، عز وجل بالتربية منذ كان، كما يتعهد الوالد ولده العزيز عليه، حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكريم الخصال؛ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ * والله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا^(١).

نعم، فقد جعل سبحانه يوصي الإنسان منذ نشأته أن يحرص على ما حصَّنه به من القوى، وعلى ما رفعه إليه من المنزلة، وظل في كل مناسبة يحذره من الشيطان أن يغلبه على مواهبه أو يخدعه عن منزلته، كما يحذّر الوالد ولده من قرين السوء، ولم يَدَعْ فرصة تمرّ دون أن يكرر له النصيحة ويعيد عليه الوصية.

حذّر منه آدمُ أبَا البشر وهو لا يزال في الجنة، قال:

(١) سورة النساء الآيات ٢٦ - ٢٨.

﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَزُوجُكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(١) .. وحذره منه بعد أن هبط به إلى الأرض :
 ﴿قَالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى * فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٢) ..
 وحذر منه بنى آدم، ذكروهم بما كان من خداعه لأبوتهم حتى أخرجهما مما كانا فيه، فقال عز وجل : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾^(٣) .. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤) .

وأرسل إليه الرسل ليعلموه كيف يكون إنسانًا كاملاً

ولم يزل سبحانه يتعهد بنى آدم بالتحذير من غواية الشيطان، ويتخولهم بالنصح والإرشاد من حين إلى حين،

(١) سورة طه الآيات ١١٧ - ١١٩ .

(٢) سورة طه آيتا ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيات ٢٧ .

(٤) سورة فاطر الآية ٦ .

ويرسل إليهم رسله وأنبياءه، أُمَّةً بعد أمةً وجيلاً بعد جيل، ومعهم الكتب والشرائع، ليبينوا لهم طريق الحق ويهدوهم سواء السبيل، وليضربوا لهم المثل بسلوكهم على أن الإنسان يستطيع بما وهبه الله من القوى أن يغالب الشيطان، وأن يقيم خلافة الله في الأرض على خير وجه، وأن يحقق فيها كل ما يريد الله من معاني الحق.

فلم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم، وأن يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق، وفي مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط. ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة، فيهم من الغرائز والمواهب ما في سائر الناس، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامها، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يُمَيِّتُوا شهواتهم، بل حَكَّمُوا فيها عقولهم وضأئهم، فضبطوها وسيطروا عليها، وساروا بها على وَفْق ما أراد الله منها، ونهجوا بها المنهج الذي بلغ بهم غاية الكمال الروحي، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسدي، فوضعوا أنفسهم بذلك في المنزلة الكريمة، وكانوا بما أُوتُوا من الحكمة خير التماذج للإنسانية الكاملة، ﴿وَمَنْ يُوتَ الْحِكْمَةُ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا

يَذْكُرُ إِلَّا أَوَّلُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

وإذا كان "المثل الأعلى - كما يقولون - هو جماع المحاسن والكمالات التي تكون عادة في مختلف الأفراد، مجردة من شوائب النقص، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس" (٢) .. فقد كان الرسل والأنبياء مثلاً علياً للجنس البشري، وغماذج كاملة، في كل زمان ومكان أرسلوا فيه؛ وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس - بأقوالهم وأفعالهم - كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى في إسعاد الخليقة، وكيف يغالبون قوى الشر التي تريد أن تفسد الحياة في الأرض.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٣) .. ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٤).

كان الأنبياء مثلاً علياً للناس في كل جيل

"وقد كان كل نبي من أنبياء الله مثلاً أعلى، وكان قدوة حسنة للذين أرسل إليهم، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

(٢) المثل الأعلى للأنبياء.

(٣) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥.

بعده لو عُرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأُتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كان يتحلى بها، ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجلوا إلا القليل من أقوالهم، ولم تُسجّل لبعضهم الفرص الكافية لإظهار فضائلهم وأخلاقهم وأفعالهم؛ كما أن الزمان ذهب بآثار الكثير منهم، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته، ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها..

كان محمد هو الشخصية الواضحة في تاريخ الرسل والأنبياء

”أما محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التي وَضَحَتْ كل معالمها، والتي سَجَّلْ معاصروها كل أقوالها وأفعالها، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أَحْصَوْها.. فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمّى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، وسَجَّلْ حياته كامل غير منقوص، وسُنَّتْه القولية والفعلية يُتَمَّم بعضها بعضًا؛ وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قُدِّرْ له وعُمِلْ حسابه، فكل ما يُعْرَضْ للإنسان مما ذُقْ أو جَلَّ يتجلى في مرآة حياته..

وهو النبي الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقنها للناس، ولن نجد في القرآن حُكماً أو أمراً لم يعمل به النبي محمد ﷺ.

تقلب في كل أطوار الحياة وكان فيها مثلاً أعلى للإنسان الكامل

”وإذا كان القرآن الكريم يفصل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها، فإن حياة النبي محمد ﷺ تصورها لنا بألوانها الحقيقية. وقد تقلب صلى الله عليه وسلم - من لَدُنْ كان يتيمًا إلى أن صار مَلِكًا^(١) - في جميع مراحل الحياة، فمدرس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة. . فقد كان طفلاً وشاباً وشيخاً، ووالداً وأخاً وزوجاً، وجاراً ورفيقاً وصاحباً. وجندياً وقائدًا وفاتحاً، ومهاجرًا ومضطهدًا ومطارداً، وتاجراً ومَلِكًا^(٢) وقاضيًا، ورجلاً في السراء والضراء. . وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية وكان مثال «الإنسان الكامل» - أو الجنتلمان كما يقول الإنجليز - ثابتاً على العهد لم يتغير طبعه ولا خُلُقُه، ولا اختلفت

(١) لم يكن رسول الله ﷺ «ملكاً» بالمعنى المتعارف من كلمة «ملك»، وإنما المقصود أنه صلى الله عليه وسلم، بلغ من سعة المُلْك وقوة السلطان ما يبلغه الملوك.

معاملته للناس، ولا تغير أسلوب معيشته. فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة، فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات، والثبات عند الملمات، والثقة في خالق الأرض والسموات^(١).

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢).

(١) المثل الأعلى للأنبياء، بشيء من التصرف في العبارة وفي الترتيب.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

خاتمة

وبعد، فإني أحمد الله كثيراً على أنه وفقني إلى عرض سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذه الصور، وأنه كان عونى ورائدى في كل خطوة خطوتها وكل منهج سلكته، كلما استعنته أعاننى وكلما استهديته هدانى، حتى انتهيت منها على خير ما كنت أرجو وأتمنى.

وأرى من الواجب أن أقرر أنى في كل ما سطرت من هذه السيرة الكريمة، قد التزمت جانب الحرص على أن تكون الحقائق التاريخية مستمدة من مصادرها الوثيقة، موصولة برواياتها وزواتها بمقدار ما سمحت به طريقة العرض وطبيعة الموضوع. وقد كان من هذه المصادر ما هو قديم تُستمدُّ الحقيقةُ منه على علاقتها مجردة من كل لون، ومنها ما هو حديث يلون هذه الحقيقة بلون صاحبها، ويمزجها بخلجات نفسه واتجاهات تفكيره. وقد جَهِدْتُ في أن أنتفع بهذه وتلك، وأن ألائم بين القديم والحديث في إخراج الصورة التى أريدها، على الوجه الذى أراه أكثر نُبْضاً

بالحياة، وأقرب شَبَّهاً إلى الطبيعة. ولم أرَ بأساً في أن أستفيد
برأى كل ذى رأى صالح، وأن أقبس من حَيَوِيَّة كل ذى قلب
حى؛ كما لم أنحرِّج من تعديل كل رأى لا يتفق مع منطق
التاريخ، ولا يستقيم مع طبيعة الحوادث.

ومن الحق أن أعترف بأن بعض هذه المصادر كان بالغ
التأثير في نفسى، واضح الأثر في تفكيرى وتصورى؛ فقد تأثرت
في الفصول الأولى - إلى حد كبير - بما كتبه الدكتور طه حسين
في كتابه «على هامش السيرة»، وانتفعت فيها بمنهجه وأسلوبه؛
كما انتفعت بمعلومات كثيرة قيمة أمدنى بها الأستاذ محمد عزت
دُرُوزَة في كتابه «عصر النبی وبيئته قبل البعثة». كذلك تأثرت
في الفصول الأخيرة بما كتبه مولای محمد على - رئيس الرابطة
الإسماعيلية بالهند - في كتابه «محمد رسول الله»، وبما كتبه
الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن»؛ وانتفعت فيها بمعلومات
قيمة أمدنى بها الأستاذ خ. كمال الدين في كتابه «المثل الأعلى
في الأنبياء»، وصديق الأستاذ البهى الخولى في كتابه «آدم عليه
السلام»، وفي مقال له عن الإسراء والمعراج في مجلة «منبر
الإسلام».

ومن الحق كذلك أن أعترف بأن تشجيع الإخوان الذين

يطمئن إلى إخلاصهم قلبي، كان من أكبر العوامل في حَفْز همتي
وانشراح صدرى.

وإذا كان من حق أحد أن يشاركنى فيما بذلت فى هذه
السيرة الكريمة من جُهد، فإنما هو زوجتى الحبيبة؛ فقد كان
فضلها علىّ عظيماً بما هيأت لى من أسباب القدرة على مواصلة
العمل، وبما كان لها من ملاحظات أستتير بها كلما قرأت عليها
فصلاً من الفصول. فجزاها الله عنى خير ما يجزى زوجة
مخلصة، بالغة العناية بزوجها، شديدة الحرص على راحته
وسعادته! وجزى الله عنى كل أخ صدوق أمدنى برأيه،
أو عاوننى بجُهدِهِ، أو شد من عزيمتى بتشجيعه!

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه - مخلصاً - من
عرض سيرة الرسول الكريم ﷺ فى صورة حية، يكون لها أثرها
الحى فى نفوس قرائها من الشباب، بما ترسمه لهم من مُثل
عالية، وما تحييه فى قلوبهم من معان كريمة.

والله أسأل أن يحقق به النفع، ويُبَلِّغ به القصد، ويَهْدِى به
السبيل، إنه سميع مجيب!!

وكان الفراغ من كتابة هذه الصور فى يوم الاثنين
٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦، ٢١ يناير سنة ١٩٥٧
"والحمد لله أولاً وآخراً"

فهرس

الصفحة

٣	تقديم
	الفتح المبين: عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً
٥	كثيراً
٨	وضعت الحرب أوزارها فانفتح الطريق أمام الدعوة
٩	أصبح المسلمون قادرين على أن يتصلوا بالناس
١١	انعزل اليهود بهذا الصلح عن العرب
١٢	اعترفت قريش بحق المؤمنين في زيارة البيت
١٣	قريش تستغيث برسول الله
١٦	حكمة الرسول وحسن نظره في الأمور
١٨	غزوة خيبر - مذبحة بنى قريظة وأثرها في نفوس اليهود
١٩	عداوة قديمة متأصلة في النفوس
٢١	كان الرسول يحاول جهده أن يسلم اليهود
٢٢	كان في عزم اليهود أن يغزو المدينة
٢٤	مناطق خيبر وحصونها

الصفحة

- ٢٥ كان غزو خيبر مقصودًا على من شهد الحديبية
- ٢٦ اعتصم اليهود بمحصونهم حين رأوا المسلمين
- ٢٨ طبيعة القتال في أرض خيبر
- ٣٠ خونة اليهود يدلون الرسول على مخابثهم
- ٣٢ سقوط خيبر
- الصلح بين اليهود والمسلمين- يهود فذك ووادي القرى
- ٣٣ يجنحون إلى السلم
- ٣٤ تقسم الغنائم
- ٣٦ مغام خيبر- كانت مغام خيبر شيئًا كثيرًا
- ٣٨ تقسم المغام
- بهذه الغزوة أمن المسلمون شر اليهود- فأقامهم الرسول في
- ٤٠ الأرض يعملون بها
- ٤١ عاملهم بالرفق والعدل
- ٤٤ لم يحفظ اليهود الجميل وجروا على طبيعتهم في الغدر ...
- ٤٥ اهتمام قريش بأنباء خيبر
- ٤٩ كان انتصار المسلمين على يهود خيبر موضع دهشة
- ٥١ قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود
- ٥٣ أيقن العرب بعد هذه الغزوة أن لا حيلة لهم

الصفحة

- مكاتبة الملوك- كانت دولتا الفرس والروم تتنازعان سيادة
العالم ٥٤
- كان العالم كله كالقطيع الضال يسير في الظلمات ٥٦
- الرسول يبلغ رسالته إلى الأمم في أشخاص ملوكها ٥٧
- قيصر يتحرى حقيقة النبي ٥٩
- كانت كتابة النبي إلى من حوله من الملوك دليلاً على ثقة
النبي بظهور الحق ٦٥
- حقيقة ينبغي أن يتدبرها المسلمون الآن ٦٦
- عمرة القضاء - الرسول يحتاط من غدر قريش ٦٨
- قريش تفزع، من حمل السلاح- قريش تنهات على رؤية
الرسول ٧٠
- موكب الرسول يدخل مكة ٧١
- النبي وأصحابه يظهرون قوتهم لأعدائهم ٧٣
- بلال يؤذن فوق الكعبة ٧٤
- مظهر المسلمين يبهز قريشاً ٧٥
- كانت عمرة القضاء غزوة مباشرة لقلوب أهل مكة ٧٨
- خالد وعمر - كان خالد وعمر من أفذاذ الرجال ٧٩
- كان كلا الرجلين يفكر في هجر مكة ٨٠

الصفحة

- ٨٢ عمرو يتحول من نية الغدر إلى عزيمة الإسلام
- ٨٣ وخالد يعتزم الفرار من الإسلام
- ٨٤ مصادفة سعيدة
- ٨٥ الرسول يسر كثيرًا بإسلام البطلين
- ٨٨ سرية مؤتة - كانت غزوة مؤتة أثرًا من آثار دعوة الملوك
- ٨٩ كان قتل رسول النہى إلى أمير بُصرى تحديًا صريحًا
- إعداد الجيش ورسم الخطة - الروم يستقبلون جيش
- ٩١ المسلمين باستعداد هائل
- ٩٣ ابن رواحة يشجع المؤمنين على لقاء الروم
- ٩٥ كان القتال بالغًا غاية الشدة
- ٩٦ حيلة خالد في إنقاذ الجيش
- ٩٨ الرسول ينمى أمراء الجيش ويشئ على شجاعة خالد
- ٩٩ موقف ابن رواحة
- ١٠١ شعر ابن رواحة وما يحمله من معاني التشجيع
- ١٠٣ ماذا سجلت هذه الغزوة للمسلمين
- ١٠٥ تقاس الهزيمة والنصر في المعارك بما تحققه الأمة
- ١٠٨ ماذا تركت غزوة مؤتة في نفوس الروم
- ١١٠ فتح مكة - كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية

الصفحة

- ١١١ كان صلح الحديبية أول مفاتيح هذا المعقل العتيق
- ١١٢ وكانت عمرة القضاء هى مفتاحه الثانى
- ١١٣ ثم نقضت قريش عهد الحديبية
- ١١٥ أبوسفیان يحاول جهده أن يصلح ما أفسدته قريش
- ١١٨ أخذ الرسول يتجهز لفتح مكة
- ١١٩ غلطة حاطب بن أبى بلتعة
- ١٢٠ الرسول يقلل عشرة حاطب
- ١٢٢ جيش الفتح - العباس يعمل على تأمين قريش
- ١٢٥ أبوسفیان يعتنق الإسلام
- ١٢٧ أبوسفیان ينذر قريشاً ويدعوها إلى التسليم
- ١٢٨ كان الرسول حريصاً على ألا يراق دم بمكة
- ١٢٩ الرسول يدخل مكة فى تواضع وخشوع
- ١٣٠ الرسول يعفو عن أعدائه عفواً لا مثيل له
- ١٣٢ فتح هذا العفو قلوب أهل مكة للإسلام
- ١٣٤ غزوة حنين - أهل مكة يبايعون الرسول على الإسلام طوعاً ...
- ١٣٦ الرسول يحو كل أثر من آثار الشرك فى مكة
- ١٣٨ أعدت هوازن وثقيف لحرب النهى فبادرهم بالغزو
- ١٤٠ كانت خطة العدو أن يأخذ المسلمين من جوانبهم

الصفحة

- ١٤٢ العدو يفاجئ المسلمين بخطته فيرتدون أمامه
- ١٤٣ الرسول يثبت ويهيب بالمسلمين أن يرجعوا
- ١٤٤ الرسول يتبع العدو إلى الطائف بعد أن شتت جموعه ...
- ١٤٥ حاول المسلمون أن يخرجوا الأعداء من حصونهم
- ١٤٦ الرسول يفك الحصار عنهم ويتركهم
- ١٤٧ الرسول يتألف قلوب السادة من قريش
- ١٤٩ خفيت حكمة الرسول على فريق من الناس
- ١٥٠ كما خفيت على الأنصار-تربية عالية
- ١٥٢ الإيمان هو السلاح الأول للمؤمن
- ١٥٣ حقيقة خالدة ينبغي أن يعرفها المسلمون اليوم
- ١٥٦ الرسول يرد على هوازن أموالها وأهلها
- ١٥٧ عودة الرسول إلى المدينة
- ١٥٩ غزوة تبوك-تبعات الأمة الإسلامية
- ١٦١ كان قيام الدولة الإسلامية مهددا لمصالح الروم
- ١٦٣ كان الروم يتابعون سير الدعوة متابعة دقيقة
- ١٦٤ مسجد الضرار
- ١٦٦ الروم يعلّون عدّتهم للقضاء على الإسلام
- ١٦٧ الرسول يدعو لملاقاة الروم فيتنافس المخلصون

الصفحة

- وأخذ المنافقون يتحللون الأعذار وبشيطون الهمم ١٦٩
- خرج الرسول إلى تبوك في ثلاثين ألفاً ١٧٠
- قاسى المسلمون في هذه الرحلة مشقة بالغة ١٧١
- كانت هذه الرحلة الشاقة امتحاناً تميز فيه المؤمنون ١٧٣
- أبو خيثمة ١٧٥
- لم يجد الرسول أحداً من الروم فلم يتجاوز تبوك ١٧٦
- كان ما نزل من الآيات في شأن هذه الغزوة أطول وأشد
- ما نزل من القرآن في شأن الغزوات ١٧٨
- على كل فرد في أمة الإسلام أن يقوم بواجبه ١٨٠
- كانت حملة القرآن قاسية على الذين قعدوا عن
- الخروج ١٨١
- أما الذين قعدوا فتوراً وكسلاً فقد قبل الله توبتهم ١٨٤
- توبة كعب وصاحبيه - كعب يخلد إلى الراحة ١٨٥
- كعب يصدق النبي في اعتذاره ١٨٨
- تأديب وتقويم ١٨٩
- الروم يحاولون استغلال الفرصة للتفريق بين الرسول
- وأصحابه ١٩٠
- بشائر التوبة ١٩٢

الصفحة

- ١٩٤ صورة من روح المجتمع الإسلامى
- ١٩٥ براءة- الحق الطبيعى لكل أمة أن تحمى شعبها
- لم يكن من الطبيعى أن تتضارب العقائد حول البيت
- ١٩٨ الحرام
- ٢٠٠ الوحى يحسم الموقف بنزول سورة براءة
- ٢٠٤ أمير الحج ينادى بها فى الناس
- ٢٠٥ ترك الإسلام للمشركين الفرصة الكافية بعد إنذارهم ...
- ٢٠٦ موقف الإسلام من أهل الكتاب
- ٢١٠ حجة الوداع- وفود العرب تغد على المدينة
- ٢١١ الرسول يكرم الوفود ويجارها فى بعض عاداتها
- الرسول لم يكن يتسامح فى شىء قط مما يعارض مبادئ
- ٢١٢ الإسلام
- ٢١٥ رسل النهى إلى القبائل
- اجتماع المسلمين من أنحاء الجزيرة ليأتموا بالرسول فى
- ٢١٦ الحج
- ٢١٨ ركب السلام
- ٢٢٠ حجة الوداع
- ٢٢١ حرمة الدماء والأعراض والأموال والربا والأخذ بالثأر ...

الصفحة

٢٢٢	حرمة الأشهر الحرم
٢٢٣	حقوق النساء - أخوة ووحدة ومساواة
٢٢٤	ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة - مناسك الحج
٢٢٦	بهذه الحجة كمل دين الله وتمت نعمته على عباده
٢٢٧	وأصبحت الدعوة أمانة في أعناق المسلمين
٢٢٩	إلى الرفيق الأعلى - دنو أجل الرسول
٢٣٠	إعداد جيش أسامة بن زيد
٢٣٢	مرض رسول الله
٢٣٣	تمريضه في بيت عائشة
٢٣٥	انتعاش الرسول يوم وفاته
٢٣٧	وفاة رسول الله - كان موته حدثاً أذهل العقول
٢٣٨	ثورة عمر على الناس - أبويكر يرد الناس إلى صوابهم ...
٢٤٠	تجهيز الرسول والصلاة عليه
٢٤٣	ملحق (١) الإسراء والمعراج - اختلاف الناس في شأنها
	هل العقل يستطيع أن يكون حكماً في شأن الإسراء
٢٤٤	والمعراج
٢٤٦	العقل يعتمد على الحواس في مدركاته
٢٤٧	هل كل ما غاب عن حواسنا غير موجود؟

الصفحة

العقل لا يستطيع أن يحيط بكل ما في الكون من أسرار	
٢٥٠ - السمع وحده هو طريق الاتصال بعالم الغيب	
٢٥٢ حكمة الإسرائء والمعراج	
٢٥٣ درجات المعرفة	
٢٥٤ تطلع النفس إلى الترقى في درجات المعرفة	
٢٥٧ هل الله تعالى مكان ؟	
٢٥٩ العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات	
٢٦٢ البقعة المباركة	
٢٦٣ حياة البرزخ	
٢٦٥ الغلطة الشائعة	
٢٦٧ ملحق (٢) الإنسان الكامل - عداوة الشيطان لأدم ونيه	
٢٦٨ الإنسان خليفة الله في الأرض	
٢٦٩ عناصر التكوين في الإنسان	
٢٧١ العنصر الأرضى وطبيعته	
العنصر الروحى وطبيعته - أسلحة الإنسان ضد عدوه	
٢٧٢ الشيطان	
٢٧٤ تسخير الطبيعة للإنسان وإعدادها لمنفعته	
٢٧٦ مواهب الإنسان كافية لأداء مهمته	

الصفحة

٢٧٧ الإنسان هو المسئول عن استخدام مواهبه
٢٧٨ لا يستطيع الشيطان أن يخدع الإنسان
٢٨٠ الله عز وجل تعهد الإنسان بالتربية
٢٨٢ وأرسل إليه الرسل ليعلموه كيف يكون إنساناً كاملاً
٢٨٤ كان الأنبياء مثلاً علياً للناس في كل جيل
٢٨٥ كان محمد هو الشخصية الواضحة في تاريخ الرسل
٢٨٨ خاتمة

١٩٨٧ / ٥٥٤٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١٥٠-٣	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

YATV / -1